من هدايات

سورة الفاتحة

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

طبع على نفقة بعض المحسنين
جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة

من هدايات
سورة الفاتحة

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البدر ، عبدالرزاق عبدالمحسن العباد
من هدايات سورة الفاتحة. / عبدالرزاق عبدالمحسن العباد البدر
الرياض ، ١٤٣٤هـ
٨٨ ص،١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٣ - ٣٠٩٩ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - سورة الفاتحة - تفسير
٣- القرآن - القراءات و التجويد أ- العنوان
ديوي ٢٢٨ ١٤٣٤/٨٧٩١

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٨٧٩١
ردمك: ٣ - ٣٠٩٩ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



المقدِّمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين، **أما بعد**:

فإنَّ سورةَ الفاتحة سورة عظيمة من سور القرآن الكريم، نقرؤها كل يوم فرضاً واجباً سبع عشرة مرة في الصلوات الخمس المفروضة؛ لأنه لا بد من قراءتها في كل ركعة من كل صلاة؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[1]. وقال في الحديث الآخر: «**من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج**»[2]؛ أي: غير تمام، وإذا كان العبد يحافظ على الرواتب والنوافل فإنه يقرأ الفاتحة في اليوم والليلة مرات كثيرة، وقراءته لها في الشهر كثيرة جداً، وقراءته لها في السنة أكثر وأكثر، وهي أفضل سور القرآن كما صح ذلك عن الرسول الكريم ﷺ.

عن أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجِبْهُ، فقلت: يا رسول الله إني كنتُ أصلِّي، فقال: «**ألم يقل الله**: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾؟»، ثمَّ قال لي: «**لأعلمنَّكَ سورةً هي أعظمُ السُّوَرِ في القرآنِ، قبلَ أن تخرجَ**

---

(١) رواه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٢) رواه مسلم (٣٩٥).

من المسجد» ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلتُ له: ألم تَقُلْ: «**لأعلِّمنَّك سورةً هيَ أعظمُ سورةٍ في القرآنِ**»؟، قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: **هي السَّبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتِيتُه**»[1].

فإذا كان مطلوباً ممن يصلِّي أن يستجيبَ للرسول ﷺ إذا دعاه، فكيفَ بمن هو منشغلٌ في الدنيا ـ أو ربما بأشياء تافهة ـ ثمَّ يُدعى إلى الصلاة، فلا يستجيب؟!

ولهذه السورة المباركة أسماءٌ عديدة تدل على عظم مكانتها ورفعة قدرها.

فهي فاتحة الكتاب: لأنها صدره ومقدّمه وأوّله. وإذا فتحت المصحف أول ما تفتحه بالفاتحة لأنها أول سور القرآن.

وهي السبع المثاني: لأن آياتها سبع.

والمثاني: لأنها تثنى في كل صلاة، فهي معك في كل ركعة من كل صلاة تقرؤها. وهذا من خصائص سورة الفاتحة.

وهي القرآن العظيم: سماها النبي ﷺ بذلك، مع أنها سورة واحدة من سور القرآن؛ لأنها اشتملت على ما اشتمل عليه القرآن كله؛ فعلوم القرآن كلها من توحيد، وأوامر، ونواه، وقصص، وأخبار موجودة في سورة الفاتحة على وجه الإجمال، وفي القرآن الكريم على وجه التفصيل.

وهي نور عظيم وضياء مبين أكرم الله به نبينا محمداً ﷺ وأمته.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا جبريلُ قاعدٌ عندَ النبيِّ ﷺ سمعَ نقيضاً من فوقه، فرفعَ رأسهُ فقال: «**هذا بابٌ من السَّماءِ فُتِحَ اليومَ، لم يفتح قطُّ إلَّا اليومَ، فنزل منه ملَكٌ فقال: هذا ملَكٌ نزلَ إلى الأرض، لم**

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٤).

ينزل قطُّ إلَّا اليومَ، فسلَّمَ وقال: أبشر بنورينِ أُوتيتَهُما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك: فاتحةِ الكتاب وخواتيمِ سورةِ البقرةِ، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلَّا أعطيتَهُ»[١].

فالفاتحة من خصائص النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وأمته؛ لأن الملك قال في الحديث: «**لم يؤتهما نبي قبلك**». فهذه منة الله على أمة الإسلام، حيث جاء الملك حاملاً هذه البشارة، وإلا فإن السورة نزل بها جبريل ﷺ قبل ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء].

فالنزول بالقرآن كان من اختصاص جبريل ﷺ، وهذا الملك جاء مبشراً النبي عليه الصلاة والسلام ـ وأمتُهُ تبعٌ له ـ بفضل هذه السورة، وأنه لا يقرأ العبد بها إلا أوتي بعدد حروفها من الأجر المضاعف والثواب الجزيل من الله سبحانه، فنحمد الله ﷻ أن منّ علينا بقراءة هذه السورة.

ومن شُكر الله ﷻ على هذه النعمة أن تُعطى هذه السورة حقها من التلاوة الصحيحة، والفهم السديد، والقيام بما تقتضيه من صلاح واستقامة وسير على صراط الله المستقيم، وأن لا يكون حظ العبد منها مجرد التلاوة لألفاظها وحروفها، بل تكون تلاوته لها شاملة لأنواع التلاوة الثلاثة؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، يقال: تلا فلان فلاناً؛ أي: تبعه؛ فتتلى هذه السورة: تلاوة الحفظ وإقامة الحروف، وتلاوة الفهم وعقل المعاني، وتلاوة القيام بما فيها من لزوم صراط الله المستقيم والثبات على الجادة السوية التي ينال العبد بالثبات عليها السعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه مسلم (٨٠٦).

ومن كان حظه من هذه السورة وغيرها من القرآن مجرد التلاوة وإقامة الحروف، فإنَّه لم يتلُ القرآن حق تلاوته؛ فلا بدَّ من إقامة الحدود بامتثال الأمر واجتناب النهي.

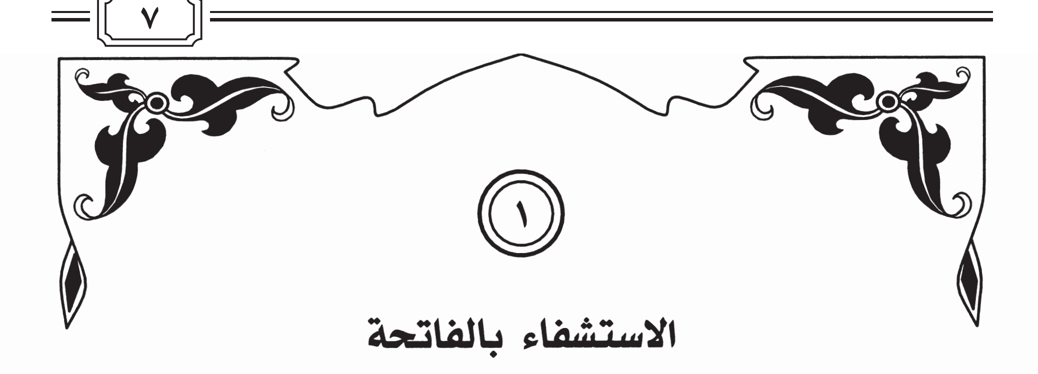
والله تعالى أنزل القرآن لتُتَدَبَّرَ آياته وليُعْمَلَ به: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وإذا كنا بحاجة إلى تدبّر القرآن وفهمه فإن حاجتنا أشد وضرورتنا أمس إلى تدبر الفاتحة؛ التي هي أم القرآن وأفضل سور القرآن، والمشتملة على ما اشتمل عليه القرآن؛ فاللائق بالعبد المؤمن أن يعطي هذه السورة العظيمة حقها من التدبر والعقل للمعاني والدلالات، حتى يتحقق له الانتفاع، ومن ثَمَّ الارتفاع بفضل الملك الوهاب.

وفي هذه الرسالة إشارة إلى بعض هدايات هذه السورة المباركة وفوائدها العظيمة وخيراتها العميمة، وهي في الأصل دروس ألقيتها ثم جرى تنقيحها وتحريرها واختصارها إلى أن خرجت بهذه الصورة التي أرجو الله أن يحقق فيها الخير والنفع والفائدة.

فللَّه الحمد أولاً وآخراً وله الشكر ظاهراً وباطناً، ثم لا يفوتني هنا أن أشكر أخي الشيخ الفاضل عبد الهادي بن حسن وهبي جهوده المشكورة ومساعيه الكريمة لإخراج هذه الرسالة أثابه الله وجعل ذلك في موازين حسناته.

هذا والله الكريم أسأل التوفيق والقبول، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وآله وصحبه.





الاستشفاء بالفاتحة

من أسماء سورة الفاتحة: الكافية الشافية. ففيها شفاء لأمراض القلوب وأمراض الأبدان؛ فإن كان في القلب فساد قصد، أو فساد نية، أو كان فيه رياء، أو كان فيه كِبر، أو كان فيه بغي وظلم، أو غير ذلك، فعلاجه في الشافية التي هي سورة الفاتحة.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كثير ما كنت أسمع ابن تيمية يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه علاج للرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه علاج للكبرياء».

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تُذهب مرض المراءاة والتصنُّع للمخلوقين، تذكيراً للعبد بمقام الإخلاص الذي هو أشرف المقامات وبعظيم ثواب الآخرة لأهله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعرِّفُ العبد بافتقاره واحتياجه إلى ربه، واستمداده المعونة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الدوام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر]. وهكذا بقية الآيات في هذه السورة كلها تعالج أمراض القلوب وفيها شفاء لما في الصدور.

وإن كان في الأبدان شيء من الأسقام والأمراض ففي الفاتحة شفاء، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «انطلق نفرٌ من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفرةٍ سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبَوا أن يضيِّفوهم، فلُدِغَ سيِّدُ ذلك الحيِّ فسعوا له بكلِّ شيءٍ لا ينفعه

شيءٌ، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهطَ الذين نزلوا، لعلَّه أن يكون عند بعضهم شيءٌ، فأتوهم فقالوا: يا أيُّها الرهطُ، إنَّ سيِّدنا لُدِغَ، وسعينا له بكل شيءٍ لا ينفعه، فهل عند أحدٍ منكم من شيءٍ؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيِّفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يَتْفِلُ عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكأنما نُشِطَ من عِقَالٍ، فانطلق يمشي وما به قَلَبَةٌ. قال: فأوفوهم جُعلَهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقْسِموا، فقال الذي رَقى: لا تفعلوا حتى نأتيَ النبي ﷺ فنذكرَ له الذي كان، فننظُرَ ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال: «**وما يدريك أنَّها رقية؟!**»، ثمَّ قال: «**قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً**» فضحك رسول الله ﷺ[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الجواب الكافي»: «مكثتُ بمكة مدَّةً تعتريني أدواء ولا أجد طبيباً، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً وكان كثيراً منهم يبرأ سريعاً...»[(٢)].

والاستشفاء بهذه السورة لا بد مع القراءة من اليقين والثقة بالله ﷻ، فإذا اجتمع اليقين والثقة بالله انتفع العبد بهذه القراءة غاية الانتفاع.

وعوداً إلى الاستشفاء بها من أمراض القلوب، ومن المعلوم أن القلوب تمرض بأنواع عديدة من الأمراض ومرضها أشد من مرض البدن؛ لأن القلب: هو أساس الأعمال وصلاحه صلاح للبدن، وفساده

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

(٢) انظر كتاب: «الداء والدواء» «الجواب الكافي» (ص٨) طبعة عالم الفوائد، وللإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام في تأثير سورة الفاتحة في «زاد المعاد» (٤/١٧٦ ـ ١٧٨).

فساد للبدن، كما قال عليه الصلاة والسلام: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**(١)؛ ولهذا قال أبو هريرة ﵁: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طاب الجند، وإذا فسد الملك فسد الجند. والقلب كذلك بل أشد، فإذا صلح القلب صلح البدن تبعاً له، وإذا فسد القلب فسد البدن تبعاً له، فصلاح الناس واستقامة أحوالهم وطيب أعمالهم وسداد أقوالهم راجع إلى صلاح قلوبهم.

وأمراض القلوب في الجملة ترجع إلى نوعين: مرض الشبهة، ومرض الشهوة. وفي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة] علاج لهذين النوعين، فالمغضوب عليهم عندهم فساد من جهة النية والقصد، والضالّون عندهم فساد من جهة العلم، وكلّ منهما خطير على صاحبه غاية الخطورة، سواء أكان الفساد من جهة الإرادة والقصد أو كان من جهة التصوّر والعلم، ومن فسد قصده والعياذ بالله لم ينتفع بعلمه ولم ينتفع بآيات الله تبارك وتعالى التي تتلى عليه، ولهذا قال جل وعلا: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ أي: نزلت عليهم بلغتهم وتليت عليهم وفهموها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾؛ أي: تركوا العمل بها لفساد في مقاصدهم وإرادتهم، فنالوا بذلك غضب الله وسخطه، فوصفهم الله ﷻ بأنهم (مغضوب عليهم): لأنه آتاهم الله علوماً وبلغتهم آيات الله وحججه، لكنهم تركوا العمل والانصياع لأمر الله والانقياد لشرعه، فالسورة تعالج هذا المرض؛ لأنها ترشد إلى التعوّذ بالله منه.

---

(١) قطعة من حديث: رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هذا يعالج فساد العلم ممن لديه رغبة في العمل ورغبة في العبادة ولكن لا علم عنده، فيعبد الله على غير بصيرة وبغير بينة من الكتاب والسُّنَّة، وهذا ضلال يتعوذ بالله منه، فإذا قرأ المسلم هذا سائلاً الله الهداية إلى صراطه المستقيم وأن يجنبه المغضوب عليهم وسبل الضالين وكرره كما شرع له في يومه مرات وكرات، فإن ذلك يعالج بإذن الله ﷻ فساد قلبه؛ لأنه لا يزال يشعر بافتقاره إلى صلاح النية والعلم واحتياجه الشديد إلى الاستقامة على صراط الله المستقيم، فلا يزال يسأل ربه ﷻ كل يوم مرات وكرات وهو من ذلك باذل للأسباب الشرعية، التي يصل من خلالها إلى كل خير وفلاح وسعادة في الدنيا والآخرة.

فجاءت هذه السورة العظيمة الكريمة المباركة، معالجةً أمراض القلوب بكافة أنواعها، مصلحةً فساد القلب لمن أكرمه الله ﷻ بحسن الاستشفاء وتمام الانتفاع بها.



٢

التوحيد بأنواعه

اشتملت سورة الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة التي خلقنا الله لأجلها وأوجدنا لتحقيقها، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق].

في الآية الأولى: خلق لتعبدوا، وفي الآية الأخرى: خلق لتعلموا، إذاً نحن خُلقنا لعبادة الله وللعلم به سبحانه، ولهذا قال العلماء: التوحيد نوعان: توحيد عملي، وتوحيد علمي.

توحيد عملي (أي: توحيد الألوهية): بأن لا تصلي إلا لله، ولا تذبح إلا لله، ولا تنذر إلا لله، ولا تدعو إلا الله، ولا تستغيث إلا بالله، ولا تطلب المدد والعون والنصر إلا من الله.

توحيد علمي (أي: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات): بأن تعرف الله تعالى وتؤمن به وبربوبيته وملكه وجلاله وكماله، أسماءه وصفاته ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر]؛ فتعلم أنه الملك الرزاق المدبر المتصرف

في هذا الكون، الذي خلقك لتعبده وحده، وتخصّه وحده بالطاعة والتذلّل؛ فلا تسأل إلا الله، ولا تدعو إلا الله، ولا تستغيث إلا بالله، ولا تطلب المدد والعون إلا من الله. هذا هو التوحيد، الذي هو أساس الدين، وروح الإسلام، وعنوان السعادة، ولا صلاح للإنسان ولا زكاء له ولا قبول لأعماله إلا به، فإذا فُقِد التوحيد لم ينتفع العامل بعمله، ولم يستفد من عبادته؛ لأن التوحيد هو أساس قبول الأعمال، فبه تكون صحيحة مقبولة، وبانتفائه تكون باطلة مردودة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر]، قال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[1]، وقال رسول الله ﷺ لابن عباس: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف**»[2].

وقد دلّت سورة الفاتحة على هذه الأنواع الثلاثة للتوحيد.

فقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الحمد: هو الثناء على الله ﷻ وعلى أسمائه الحسنى، وصفاته العظيمة ونعمه التي لا تحصى وآلائه التي لا تستقصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [ابراهيم]، مع حبه ﷻ؛ فيحمده العباد، لجلاله وكماله وعظمته، ولأنه المنعم المتفضّل المانّ على عباده بصنوف النعم وأنواع المنن، فهو ﷻ أهل الحمد والثناء، وأكمل أحوال العبد أن يكون حامداً لله. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله**

---

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٤٠٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٦١٠).

ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشَّربة فيحمدَه عليها»[١].

وكان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مُؤوِيَ**»[٢].

و﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فيه الإيمان بربوبية الله؛ والرب: هو المالك، الخالق، الرازق، المدبر، المتصرف، المحيي، المميت، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزّ، المذلّ، المدبّر لكل هذا الكون؛ أوجده ﷻ من العدم، وهو ﷻ الذي يتصرّف فيه كيف يشاء، ويقضي فيه بما يريد، لا رادّ لحكمه ولا معقّب لقضائه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]، وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام].

قال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾؛ أي: ما خُلِقوا له وأُوجِدوا لتحقيقه، من عبادة الله وإخلاص الدين له ﷻ؛ ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال العلماء: كالصواعق والرياح المدمّرة، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالزلازل والخسف ونحو ذلك من العقوبات؛ فالله قادر على كل شيء، الأمر أمره، والخلق خلقه، والأمر كلّه بتدبيره. فإذا عقل المسلم هذا المعنى، لا يمكن أن يتجه بعبادته ورجائه إلى غير الرب الحميد ﷻ.

ولهذا من الجهل والضلال أن يقول بعض الناس عن الزلازل: إنها ظواهر طبيعية أو ينسبون ذلك إلى الأرض نفسها أو نحو ذلك؛ لأنَّ هذا

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٥).

ملك الله يتصرف فيه ﷻ كيف يشاء، وقد قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ [الإسراء]؛ يعني: آيات الله العظام يخوّف بها عباده لعلهم يذّكّرون، ولعلّهم يفقهون، ولعلّهم يتوبون إلى الله ﷻ.

فإيمان العبد بذلك يستلزم إفراد هذا الرب بالعبادة وإخلاص الدين له سبحانه، وهذا هو صراط الله المستقيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤﴾ [الزخرف]. فلا شريك لله في ذرة من ذرات هذا الكون.

﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو ﷻ المتصف بالرحمة لعباده؛ لأن أسماء الله ﷻ كلها دالة على ثبوت صفات الكمال له جلَّ وعلا.

عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: قدم على النبيِّ ﷺ سبي، فإذا امرأةٌ من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**»، قلنا: لا وهي تقدر على أن تطرحه، فقال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[1].

ورحمته وسعت كل شيء، كتبها ﷻ لأهل الإيمان، وأهل التوبة الذين يرجون رحمته، ويخافون عذابه. فإذا عرفت ربك بأنه رحمٰن وأن رحمته وسعت كل شيء، عرفت نفسك بافتقارها واحتياجها إلى رحمته تعالى، فأنت تسأل الله ﷻ أن يجعلك ممن تنالهم رحمته.

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أي: نخصّك يا الله وحدك بالعبادة ونفردك وحدك بالاستعانة، فلا نعبد إلا الله ولا نستعين إلا بالله، وهذا توحيد الله في العبادة؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وتقديم المعمول يفيد

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

الحصر، بمعنى نعبدك ولا نعبد غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أي: نستعين بك ولا نستعين بغيرك.

وإذا عرفت ذلك تعرف فقرك واحتياجك إلى الله وأنه لا غنى لك عنه طرفة عين، فإذا لم يعنك الله لا تستطيع أن تتحرك أو تقوم بمصالحك وأعمالك، ولا أن تقوم بالعبادة والطاعة. قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «**يا معاذ! والله إني لأحبّك أوصيكَ يا معاذ، لا تدعنّ في دبر كل صلاة تقول: اللَّهُمَّ أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(١)]، وقال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله**»[(٢)].

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تحقيق لكلمة لا إلـه إلا الله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تحقيق لـ(لا حول ولا قوة إلا بالله)؛ لأنّ لا إلـه إلا الله فيها إفراد الله بالعبادة، ولا حول ولا قوة إلا بالله فيها إفراد الله بالاستعانة.

ولهذا من الجهل المبين ومن الضلال العظيم أن يقرأ الإنسان ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم بعد ذلك يمد يديه قائلاً: مدد يا فلان، أغثني يا فلان، ملتجئاً إلى مخلوق مثله، لا يُعطي ولا يمنع، لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فضلاً أن يملك ذلك لغيره. أين من يدعو غير الله من نبي أو ولي أو صالح أو طالح من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾! أين هو منها؟! لأن معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: نخصك يا الله بالعبادة.

فالعبادة تشمل الصلاة والصوم، والحج والذبح، والدعاء، كما قال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[(٣)]، فإذا كان عبادة كيف تُصرف لغير الله،

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤١٧/١).

(٢) قطعة من حديث: رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) رواه أبو داود (١٤٧٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٧/١).

وكيف يُدعى غير الله، والله ﷻ يقول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ]، ويقول تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر]، ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف].

إن من فهم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقّ الفهم، لا يمكن أن يتوجّه إلى غير الله، ولا يمكن أن يستعين بغير الله، كيف يستعين بمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا عطاء ولا منعاً، ويدع من بيده أزمّة الأمور ومقاليد السماوات والأرض، الذي أمْره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ففيها التربية على توحيد الله ﷻ، ولكن لمن عقل المعنى وفهم المدلول.



٣

الإخلاص والمتابعة

ومن هدايات هذه السورة العظيمة أنها اشتملت على شرطَي قَبُول العبادة، فالعبادة أيّاً كانت لا تكون مقبولة عند الله ﷻ إلا بشرطين، فإن وجدا قُبلت وإن انتفيا أو انتفى أحدهما رُدت، ألا وهما: **الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول ﷺ**.

فالعبادة لا يقبلها الله تعالى من العامل إلا إذا كانت له خالصة، ولسُنَّة نبيه ﷺ موافقة، فإذا وجِد الإخلاص في العبادةِ، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام قُبلت، وإذا انتفى الإخلاص أو انتفت المتابعة رُدت؛ ولهذا قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] فذكر جلَّ وعلا الشرطين؛ قال تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ والعمل لا يكون صالحاً إلا إذا وافق السُّنَّة، سُنَّة النبي ﷺ لأنه هو الذي بيّن للأمة العمل الصالح ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

وذكر الشرط الثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هذا فيه الإخلاص، وهو أن يتبرأ من الشرك وأن يتخلص منه بأن يكون لله تعالى مخلصاً؛ والشرك هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، سواء في الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات. فهذان شرطان لا قَبُول للأعمال إلا بهما. يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢].

وتأمل هنا، لم يقل الله: ليبلوكم أيكم أكثر عملاً؛ إذ العبرة بالحُسن، والعمل لا يكون حسناً إلا بهذين الشرطين. ولهذا قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: أخلصُه وأصوبُه، قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكونَ خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنَّة». وهذان الشرطان العظيمان لقبول العمل قد اشتملت عليهما سورة الفاتحة.

أما شرط الإخلاص: ففي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهنا قُدّم المعمول، وتقديمه دليل على الحصر؛ فمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: نخصك وحدك بالطاعة لا نصرف شيئاً من العبادة لأحد غيرك، فالخالص هو الصافي النقي، وإذا أردت معرفة معنى الإخلاص في اللغة فاقرأ قول الله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل]؛ أي: صافياً نقياً، واللبن يخرج من ضرع بهيمة الأنعام من بين فرث ودم حتى إنه يقال: يخرج حين حلبه من بين الفرث والدم ولكنه يخرج خالصاً لا ترى فيه نقطة دم ولا ترى فيه قطعة فرث، تبارك الله أحسن الخالقين. والإخلاص في العبادة أن تكون العبادة صافية نقية، لا يراد بها إلا وجه الله.

وقد جاء في الحديث القدسي أن الله ﷻ يقول: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟! الشرك الخفي: أن يقوم الرجل يصلي، فيزين صلاته**

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

لما يرى من نظر رجل»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل! قولوا: اللَّهُمَّ إنَّا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»**[٢].

ولهذا يجب على العبد أن يحذر أشد الحذر من الشرك، وأن يتعوذ بالله تبارك وتعالى من الشرك، وأن يحافظ على هذه الدعوة النبوية العظيمة المباركة التي علَّمها النبي ﷺ أمته.

والشرط الثاني: ورد في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذا فيه دليل على أن الله لا يقبل العمل إلا إذا كان على ضوء الصراط المستقيم، الذي دعا إليه النبي ﷺ، وقد ثبت في الحديث أنّ النبي ﷺ قال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٣]؛ أي: مردود على صاحبه غير مقبول منه، ولهذا قال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[٤]، وقال في الحج: «**لتأخذوا عني مناسككم**»[٥]، ولا مجال أن تجتهد وأن تقول: هذا أفضل أو هذا أحسن، وإنما حسبك السُّنَّة وهدي نبيك الكريم ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ إذا خطب الناس يوم الجمعة قال: «**أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ**»[٦].

فليس ثمة هدي أكمل من هديه، ولا نهج أحسن من نهجه، ولا طريق أحسن من طريقه ﷺ. فالسورة اشتملت على تحقيق هذين الشرطين.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٠٨).

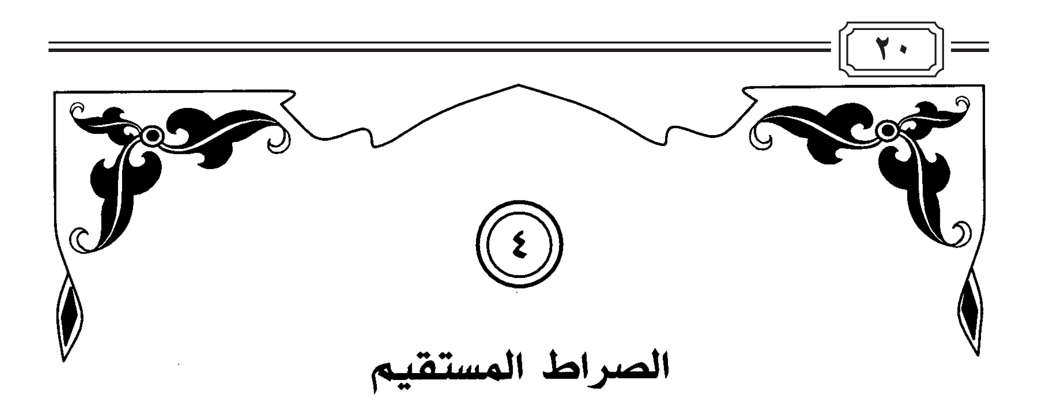
(٢) رواه أحمد (٤/٤٠٣)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٣٦).

(٣) رواه مسلم (١٧١٨).

(٤) رواه البخاري (٦٣١).

(٥) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٦) رواه مسلم (٨٦٧).



٤

الصراط المستقيم

والحديث على الصراط المستقيم ـ وهو من هدايات هذه السورة المباركة ـ ينحصر في النقاط التالية:

أولاً: الهداية إلى الصراط المستقيم منّة الله.

ثانياً: ما هو الصراط المستقيم؟

ثالثاً: عوائق السير على الصراط المستقيم.

رابعاً: من هم أهل الصراط المستقيم؟

□ أولاً: الهداية إلى الصراط المستقيم منّة الله:

الله هو الهادي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس]، وفي الآية الأخرى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]؛ فالهداية بيده تعالى، فما أحوجنا، ثم ما أحوجنا، ثم ما أحوجنا إلى أن نديم سؤال الرب تبارك وتعالى أن يهدينا صراطه المستقيم.

وفي دعاء القنوت: «**اللَّهُمَّ اهدني فيمن هديت**»[1]، وفي حديث عليٍّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**قل: اللَّهُمَّ إني أسألك الهدى**

(١) رواه أبو داود (١٤٢٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٢/١).

والسداد»[١]، وفي حديث البراء: أنّ رسول الله ﷺ قال يومَ الخندق: «**اللَّهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلَّينا**»[٢].

فالهداية بيده، وهو سبحانه يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، وإن لم يهدك ربك إلى صراطه المستقيم ضللت في هذه الدنيا؛ لأنَّ الدنيا مليئة بالفتن ومليئة بالصوارف؛ كالشيطان وقرناء السوء، والنفس الأمارة بالسوء، ولهذا قال من قال: ليس العجب ممن هلك كيف هلك، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا. لأنّ الصوادّ كثيرة، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم، والهداية منّته ﷻ، فأنت تعرف نفسك بأنك فقير إلى هداية الله لك. وأنك بحاجة أن يهديك ربك ﷻ إلى طريقه المستقيم.

◻ ثانياً: ما هو الصراط المستقيم؟

الصراط المستقيم هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولا ميلان، ولا انحراف ذات اليمين ولا ذات الشمال؛ قال رسول الله ﷺ: «**قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغُ عنها بعدي إلَّا هالكٌ**»[٣].

وسئل ابن مسعود ﷺ: ما هو الصراط المستقيم؟ قال: هو طريق تركنا النبي ﷺ في أوله، وآخره في الجنة، وعلى جنبتي الطريق عن يمينه، وعن شماله جواد.

وقد وضَّح النبي ﷺ هذا الصراط بمثل ضربه للصحابة، فخط خطاً، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأسود، فقال: «**هذا سبيل الله**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣][٤]؛

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٥).

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٤)، ومسلم (١٨٠٣).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٣)، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤١).

(٤) رواه ابن ماجه (١١)، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١١).

لأن الشيطان جالس للعبد في طريقه المستقيم يريد أن يأخذ به ذات اليمين وذات الشمال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]، ولهذا قال ﷺ في حديث سَبْرَةَ بن أبي فاكه: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه**»[1]؛ أي: كل طريق يسلكه ابن آدم الشيطان قاعد فيه يريد أن يحرفه وأن يصرفه عن الحق وعن الهدى: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أكثر الخلق ماتوا على الكفر بالله وعلى عدم الشكر لله ﷻ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

وهناك أيضاً مثل آخر عجيب ضربه النبي ﷺ في بيان صراط الله المستقيم.

عن النَّوَّاسِ بن سَمْعَان الأنصاري، عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنْبَتَيْ الصِّراط سُورَانِ، فيهما أبوابٌ مفتَّحَةٌ، وعلى الأبوابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وعلى باب الصِّرَاطِ داعٍ يقول: يا أَيها الناسُ، ادْخُلُوا الصِّراطَ جَميعاً، ولا تَتَعَرَّجُوا، وداعٍ يدعو من فوقِ الصِّراطِ، فإذا أرادَ يفتحُ شيئاً من تلكَ الأبوابِ، قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإنكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، والصِّراطُ: الإسلامُ، والسُّورانِ: حُدودُ الله، والأبوابُ المُفَتَّحَةُ: مَحارمُ الله، وذلك الدَّاعي على رأْسِ الصِّراطِ: كتابُ الله، والدَّاعي من فوقِ الصِّراطِ: واعِظُ الله في قَلْبِ كُلِّ مُسلمٍ**»[2].

هذا واعظ جعله الله منبهاً للمسلم في قلبه يمنعه من غشيان الحرام، وهذا الواعظ قد يفسد إذا انهمك الإنسان في المحرمات،

---

(١) رواه النسائي (٣١٣٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٣٨١).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣)؛ وصححه الألباني رحمه الله في «ظلال الجنة في تخريج السُّنَّة» لابن أبي عاصم، برقم (١٩).

فيصبح لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، كما قال الرب جل شأنه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]؛ أي: غطى قلوبهم ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: من الذنوب والمعاصي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ العبدَ إذا أخطأ خطيئةً؛ نُكِتَتْ في قلبه نُكتةٌ سوداءُ، فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ؛ صُقِلَ قلبُهُ، وإن عادَ، زيدَ فيها؛ حتى تعْلُو قلبَهُ، وهو الران الذي ذكر الله:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»(١).

الشاهد أن هذا مثل عجيب لبيان الصراط المستقيم، الذي جعل مثلاً للإسلام، فهو طريق مستقيم وعلى جنبتيه جداران؛ هما حدود الله، التي هي شرعه الذي أمر عباده بالاستقامة عليه وعدم مجاوزته كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، والأبواب التي عليها ستور مرخاة تفضي بالداخل إلى الحدود المحرمة. ولهذا قال في آية أخرى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] فهنا المراد بالحدود المحرمات، وفي الآية الأولى المراد بالحدود ما أذن الله به وشرعه وأباحه لعباده بأن لا يتجاوز ولا يتعدى. قال: «**على الأبواب ستور**»؛ أي: على الأبواب التي تفضي إلى الحرام، ستور مرخاة ليس عليها أقفال ومفاتيح، فلا تحتاج إلى معالجة للدخول، وهذا فيه أن الدخول إلى الحرام لا يحتاج إلى وقت كثير أو جهد كبير.

وكما أنّ في هذه الدنيا صراطاً مستقيماً يُطلب من العباد السير عليه، فإن أمامهم يوم القيامة صراطاً مستقيماً، يُنصب على متن جهنم ويطلب من الخلائق أن يمشوا عليه؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؛ أي: جهنم ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم]؛ الطريق إلى الجنة إنما هو على هذا

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٦٤).

الصراط، صراط أدقّ من الشعر يُنصب على متن جهنم، ونارها من تحت الناس تلظى وتتضرَّم ويطلب من الناس السير على هذا الصراط، وقد أقسم الله على ذلك ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا بد من السير على هذا الصراط المستقيم على متن جهنم، والمسلم على يقين من المرور، ولكنه في شك من النجاة، والله جل وعلا يقول: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران]، فلا يدري هل هو من الفائزين الناجين المزحزحين؟ أو ليس منهم؟ لذلك ينبغي على العبد أن يحافظ على السير على الصراط المستقيم الذي هو دين الله دين الإسلام، وعدم الانحراف عنه ذات اليمين وذات الشمال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف]؛ ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**أي: لم يروغوا روغان الثعلب**»[1]، بمعنى أنهم ثابتون في سيرهم على صراط الله المستقيم في الدنيا، فيثبتهم ربهم على الصراط المستقيم الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة.

□ ثالثاً: عوائق السير على الصراط المستقيم:

ينبغي أن تعلم أيها السائر على هذا الصراط أن أمامك عوائق تعوق سيرك على هذا الصراط وتقطعك عن المضي فيه، وهي تحديداً ثلاثة عوائق، جاء في سورة الفاتحة نفسها هدايات عظيمة ودلالات مباركة لتحصيل السبيل الآمنة للنجاة منها، وهي عوائق نبه عليها أهل العلم كثيراً وحذروا الناس من الوقوع فيها، وهي على مراتبها في الخطورة:

العائق الأول: عائق الشرك بالله تعالى.

العائق الثاني: عائق البدعة.

العائق الثالث: عائق المعصية.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» لسورة فُصِّلت الآية (٣٠).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطاً، ثمَّ قال: «**هذا سبيلُ الله**» ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «**هذه سُبُلٌ متفرِّقةٌ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[١] [الأنعام: ١٥٣].

والسبل التي ذكر النبي ﷺ لا تخرج عن الثلاثة: إما سبيل يدخل به الإنسان إلى الشرك بالله، أو سبيل يدخل به الإنسان إلى البدعة في دين الله، أو سبيل يدخل به الإنسان إلى المعاصي والذنوب، وما من شكّ أن الأحب للشيطان والأرغب عنده والأفضل لديه أن يكون دخول الإنسان إلى الشرك، فإن لم يستطع فالبدعة، فإن لم يستطع فالمعاصي، ثم يتدرّج إلى ما دون ذلك.

ولهذا ذكر ابن القيم في بعض كتبه أنَّ ما يريد الشيطان نيله من الإنسان أمور سبعة ويبدأ بها أولاً بأوّل، فإن ظفر بالأعظم عنده، وإلا نزل للمرتبة التي دونها، فهو أولاً يريد من الإنسان الشرك بالله جل وعلا، فإن لم يستطع ذلك أراد منه الوقوع في البدعة؛ لأن البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية، لماذا؟ لأن صاحب البدعة يظن نفسه وهو على بدعته أنه على خير، وإذا قيل له: إن ما أنت عليه هو خطأ لا يقبل، بل يرى أن الذي هو عليه هو الحق وهو الصواب، بينما العاصي إذا نصح عن معصيته يشعر بأنه مخطئ، وأنه على ذنب، ولهذا يقول: ادع الله أن يتوب عليّ، لعلَّ الله أن يغفر لي؛ لكن المبتدع لا يقبل ولا يرضى بل ينافح ويدافع ويصر، إلا إن كتب الله له الهداية وشرح صدره للخير، ولهذا قال ﷺ: «**إن الله حجب التوبة عن صاحب كلِّ بدعة**»[٢].

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٣٥)، وحسنه الألباني رحمه الله في التعليق على «هداية الرواة» (١/ ١٣١).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٠٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٦٢٠).

والذنوب منقسمة إلى صغائر وكبائر، والله تعالى يقول: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر]؛ أي: مكتوب على العبد، ويلقاه في ديوان أعماله يوم يقف بين يدي الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]؛ فإن لم يستطع إيقاع العبد في الكبيرة اجتهد في إيقاعه في الصغيرة، فإن لم يستطع أن يوقعه في الصغيرة، يجتهد في أن يشغل العبد بالأمور المباحة عن الطاعات والعبادات، فإن لم يستطع ذلك انتقل إلى رتبة سادسة، ألا وهي أن يشغله بالأمور المفضولة عن الأمور الفاضلة؛ فإن دين الله ﷻ والطاعات التي أمر الله بها متفاضلة، كما قال ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[1].

فإن لم يستطع هذه السادسة انتقل إلى أمر سابع، وهذا لا يسلم منه أحد، ولو سلم منه أحد لسلم منه رسول الله ﷺ، ألا وهو أن يسلط عليه من جنوده من يؤذيه، إذا أيس من صرفه عن الخير سلط عليه من جنوده من يؤذيه فيتعرض لبعض الأذى في جنب الله ﷻ، ولهذا أمر المؤمنون بالتواصي بالصبر: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] وأيضاً قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]؛ لأن الأذى ولا سيما لقوي الإيمان أشد من غيره. فهذه خطوات يتدرج الشيطان في تحصيلها ونيلها من العبد. واقرأ في هذا الباب قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

والشيطان: عدو يراك ولا تراه، شديد المؤنة: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ

(١) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، واللفظ له.

وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وهو قاعد لك في طريق الله المستقيم، لحرفك عنه وصدك عنه وإبعادك منه، وإيقاعك في مهاوي الانحراف، اللَّهُمَّ أعذنا من الشيطان الرجيم.

ثم هذه العوائق الثلاثة: الشرك، والبدعة، والمعصية، يجب على كل مسلم ومسلمة أن يحذر منها أشد الحذر، وأن يخاف على نفسه من الوقوع فيها، وأن يهتدي في هذا الباب بهدايات سورة الفاتحة، وهدايات القرآن، وهدايات سُنَّة النبي الكريم ﷺ.

قيل لأبي هريرة رضي الله عنه: أخبرنا ما التقوى؟ قال لمن سأله: هل سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: كيف تصنع؟ قال: «إذا رأيت الشوك أمشي عنه يميناً أو يساراً، وأحذر أن أطأه، قال: هذه تقوى الله». لكن الذي تحذره هنا في التقوى ليس الشوك، بل هو أشدّ نكاية في الإنسان منه، وهو الشرك والبدعة والمعصية. فيحتاج السائر في طريق الله المستقيم أن يتقي هذه الأشياء ويحذر منها. يقول بعض السلف: كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟

فأنت مطالب أن تعرف الشرك ما هو؟ وأن تعرف البدعة ما هي؟ وأن تعرف الكبيرة ما هي؟ وذلك من أجل أن تتقيها، كما قال من قال:

تعلَّم الشر لا للشرَّ ولكن لتوقيه ... فإن من لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

كثير من الناس وقعوا في أمور هي من الشرك الصُّراح والكفر البواح، بسبب الجهل المطبق بدين الله تبارك وتعالى، وكثير وقعوا في بدع ومخالفات لسُنَّة النبي ﷺ لجهلهم بدين الله، وهكذا الوقوع في المعاصي والذنوب، غالب ذلك سبب الجهل بدين الله، ولهذا أوّل ما يطلب من الإنسان في الدين طلب العلم حتى يعرف دينه وحتى يعرف

الحقّ، ويعرف الهدى، ولهذا يبدأ بالعلم قبل القول والعمل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بدأ بالعلم قبل القول والعمل.

فأنت مطالب أن تعرف هذه العوائق الثلاثة: الشرك والبدعة والمعصية، لتحذر منها ولتجتنبها ولتحذّر بنيك ومن تعول من الوقوع فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣]؛ هب أنك قلت لابنك يوماً: يا بني لا تشرك بالله! فقال لك ابنك: وما الشرك الذي نهى الله عنه؟ أيليق بك في هذا المقام أن لا تعرف الشرك ما هو؟ فحقيقة هذا أمر مهم ولا بد منه.

ولم يقع من وقع في الشرك في الغالب إلا بسبب الجهل، ولا سيما مع كثرة الشبهات التي تعصف بالجهال، فتحرفهم عن دين الله تبارك وتعالى، أليست من المصائب العظام، والطوام الجسام، أن تجد في المنتسبين إلى الإسلام من يرفع يديه الرفع الذي لا يكون إلا لله، ويمدهما مداً ثم ينادي مدد يا فلان؟ أغثني يا فلان، أدركني يا فلان، ألحقني يا فلان، سبحان الله!! أين الله؟ أين التوحيد؟ أين البراءة من الشرك؟ ما سبب وقوع أمثال هؤلاء في أمثال هذه الشركيات ـ أعاذنا الله وإياكم ـ إلا الجهل بدين الله ودخول شبهات المضلين عليهم؟ وقد قال ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلون**»[(١)].

ماذا يفعل الأئمة المضلّون؟ يزينون الباطل ويلبسون على الناس ويصورون لهم الضلال بصورة الهدى فيقع الناس في الانحراف، ويقع الناس في الشركيات والبدع والضياع، ولهذا يجب على العبد أن يكون في غاية الحذر.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٤١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٥٥١).

أوَ لا نعرف الشرك الذي هو أخطر الذنوب وأعظمها ما هو؟! وقد قال الله تعالى في بيان خطورته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر].

هل قدر الله حق قدره، من يستغيث بغير الله؟ من يدعو غير الله؟ من يطلب المدد والعون من غير الله؟ من يطلب كشف ضرَّائه وإزالة بلائه من غير الله؟ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل]؛ أي: قليلاً تذكركم فلو أنكم تتذكرون وتتفكرون وتتدبرون بالأمر لما وقعتم في ذلك.

فالشرك أخطر الأمور وأظلم الظلم وليس في الظلم ظلم أعظم منه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، وأي ظلم أعظم من أن تصرف العبادة والدعاء لغير الخالق؟! يخلق هو، ويرزق هو، وينعم هو، ويتفضل هو سبحانه، ثم يُدعى غيره ثم يُسأل غيره!.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبي ﷺ أي ذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[1]. وتنبّه هنا لقوله: «**وهو خلقك**»؛ أي: أن تفرّده سبحانه وتعالى بخلقك وإيجادك من العدم يكفي دليلاً على وجوب إفراده وحده بالعبادة فلا يُدعى إلا هو، ولا يُسأل إلا هو، ولا يُستغاث إلا به، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يُطلب المدد والعون والنصر إلا منه، ولا يُتخذ معه ند ولا شريك، لا مَلَك مقرّب ولا نبي مرسل، ولا

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

ولي ولا غيرهم؛ لأن العبادة حق للخالق تبارك وتعالى، قال ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] أي: تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله.

◘ رابعاً: من هم أهل الصراط المستقيم؟

أهل الصراط المنعم عليهم، هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء].

وإذا منّ الله عليك بسلوك هذا الصراط فلا تستوحش حتى لو كنت وحدك؛ لأنك في طريق كان عليه النبيون والصديقون والشهداء الصالحون.

وقوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: فيه دلالة أن سلوك العبد للصراط المستقيم نعمة من الله، فلولا نعمة الله على عبده بسلوك الصراط المستقيم ما سلكه ولا سار فيه، لكن الله أنعم عليه.

فلا يكون العبد منعماً عليه إلا بأمرين: عِلمٌ بالحق، وعَملٌ به. علم يهدي العبد، وعمل صالح يرقي العبد.

وإذا وجد العلم النافع لا بد من العمل به؛ فإذا وجد علم نافع وعمل صالح، كان العبد من الماضين السائرين على صراط الله المستقيم.

فالناس ثلاثةُ أقسام: قسم منعم عليه، وقسم مغضوب عليه، وقسم ضال.

والمُنعَم عليه هو الذي منّ الله عليه بالعلم النافع والعمل الصالح. والمغضوب عليه: هو الذي عنده علم لا يعمل به، وهذا فساد العمل وفساد القصد، وآخر ضالّ وهو الذي يعمل ولكن بلا علم، عنده عبادات

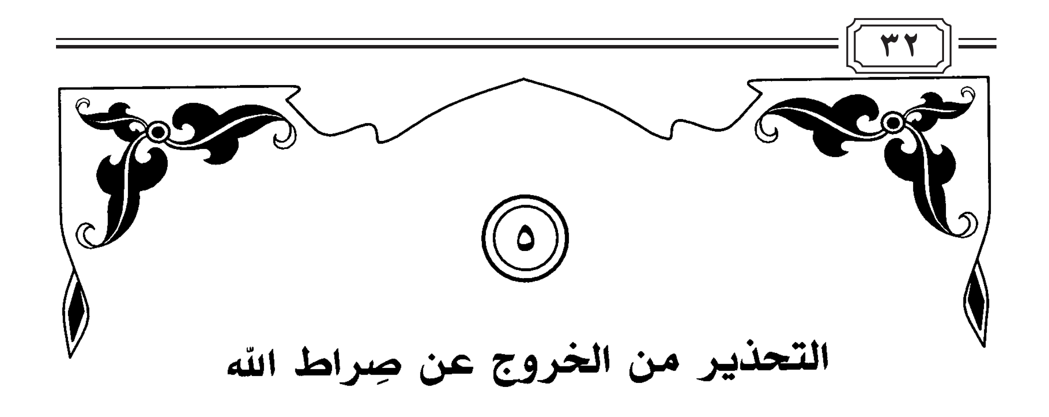
وعنده أعمال، ولكن كلها ضلال وكلها بدع والله يقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف] فتعرف من خلال هذا نفسك وحاجتك بأن يجعلك الله تعالى من المنعم عليهم أهل صراطه المستقيم.

وكم هو جميل بالمؤمن أن يستشعر عظيم حاجته وشديد افتقاره للسير على هذا الصراط، والثبات عليه إلى أن يلقى الله عَزَّ وَجَلَّ وهو راض عنه، فهذه أعظم النعم وأجل المنن وأكبر العطايا على الإطلاق، ولهذا قال الله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

فهذه أعظم نعمة وأجل منّة وأكبر عطيّة أن يهديك الله جل وعلا صراطه المستقيم، وأن يثبتك عليه إلى أن تلقاه سبحانه وهو راض عنك.

وفي هذا السياق المبارك عُرِّف الصراط بأنه مستقيم، وبذكر أهله المنعم، وبذكر المنحرفين الحائدين عن سلوكه.





التحذير من الخروج عن صِراط الله

ينبغي أن يعلم أن الشيطان لا يزال بالعبد حريصاً على إخراجه من صراط الله المستقيم بإحدى طريقين: طريق الشبهة أو طريق الشهوة، فالشبهة يصل من خلالها الإنسان إلى الحدث في الدين والبدعة، والشهوة يصل من خلالها إلى ارتكاب المعاصي والمحرمات، فالشيطان يحتال على الإنسان ويمكر به ويكيد له ويُخطط لإخراجه، ويدرس حال الإنسان وميولاته، وأي طريق أقرب إلى الخروج عنده، هل هو طريق الشبهة أو طريق الشهوة؟

كما قال بعض السلف: إن الشيطان يشّام القلوب، بمعنى أنه ينظر إلى ما يميل إليه الإنسان، فإذا وجد فيه تمسكاً بالدين وحرصاً عليه اجتهد في إخراجه من الدين من جهة الشبهة، لا يزال معه يقلل التدين والطاعة التي هو عليها ويهون من شأن العبادة التي يقوم بها، فيبدأ يشدد على نفسه ويشدد على غيره إلى أن يخرج عن الصراط المستقيم. وأما الآخر الذي إيمانه فيه ضعف فإن الشيطان يأتيه من جهة الشهوات، فالخروج عن صراط الله المستقيم إما عن شبهة وإما عن شهوة.

وإذا كان الخروج عن شبهة فهذا فسادٌ في العلم، وإذا كان عن شهوة فهذا فساد في العمل، ودين الله تبارك وتعالى الذي هو صراط الله المستقيم صلاحٌ في العلم والعمل. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، قال العلماء: أي: بالعلم النافع والعمل

الصالح، فإذا تحقق هذان كان العبد سائراً على صراط الله المستقيم.

وقد كان ﷺ يقول إذا صلى الصبح حين يسلِّم: «**اللَّهُمَّ إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيِّباً، وعملاً مُتَقَبَّلاً**»[(١)].

فالعلم النافع يهتدي به الإنسان إلى طريق الخير، والعمل الصالح يمضي به في طريق الخير رفعة وعلواً، والشيطان يريد خروج العبد إما بفساد علمه أو بفساد عمله؛ فإذا فسد العلم يصبح الإنسان ضالاً، وإذا فسد العمل يصبح الإنسان مغضوباً عليه. ولهذا قال في تمام السورة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فالمغضوب عليهم فسدوا في العمل، والضالون فسدوا في العلم. فلا يسلم الإنسان من غضب الله ومقته وعقابه إلا إذا اهتدى إلى الصراط المستقيم، وثبت عليه فلم يخرج عنه بشبهة ولا بشهوة.

وطريق الشهوات بابٌ خطير على الناس، يخرج من خلاله كثيرون عن صراط الله المستقيم اتباعاً للهوى ولدعاة الشهوات الذين تباروا وتنافسوا في صد الناس عن الخير، وإيقاعهم في الرذائل والمحرمات من خلال مجالاتٍ كثيرةٍ جداً: عن طريق القنوات الفضائية، وعن طريق شبكة الإنترنت العنكبوتية، وعن طريق المجلات الهابطة، وعن طرقٍ كثيرة متعددة.

واسمع في هذا المقام ـ متأملاً متدبراً ـ قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧﴾ [النساء]؛ أي: أن تميلوا عن صراط الله المستقيم وعن الجادّة السوية، فهناك فئام من الناس متبعون للشهوات، يريدون من غيرهم أن يميلوا إلى الشهوات ميلاً عظيماً مثل ما مالوا هم إليها، بحيث لا يبقى ذلك منحصراً فيهم فقط، ولهذا يقول عثمان بن عفان رضي الله عنه:

---

(١) رواه ابن ماجه (٩٢٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٧٦٢).

«ودّت الزانية لو زنت النساء جميعاً»؛ لأن من يقع في حبائل الشهوات ويتلوّث بلوثتها لا يريد أن يكون وحيداً في مجتمعه فريداً في قومه، بل يريد من غيره أن يكون معه على نهجه، ولهذا ينشط في غواية من هو سالم لجرِّه والميل به إلى سبيل الشهوات. ومن هنا أخذوا ـ ولا سيما في زماننا هذا ـ يتفننون بعرض وسائل الشهوة واصطياد الناس وابتزاز أموالهم، وإيقاعهم في حبائل الشهوات المحرمة واللذائذ الباطلة التي نهى الله تبارك وتعالى عباده عنها وحذرهم منها.

لِذا، يجب على العبد أن يكون على حذر من المعاصي ومن الآثام، ومن الدخول فيما يغضب الرب العظيم جَلَّ جَلَالُهُ. وهذه السورة المباركة تهديك بإذن الله جلّ وعلا إلى البعد عن هذه الرذائل، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ والصلاة أعظم أركانها الفاتحة، كما ثبت في الحديث القدسي: **«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»**(١)، فسمى الفاتحة صلاةً. لكن الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر: هي تلك الصلاة التي يتدبّر الإنسان فيها ويتفكّر ويتأمل في كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا سيما في هذه السورة العظيمة التي هي ركن عظيمٌ من أركان الصلاة، فإنها تهدي العبد بإذن الله تبارك وتعالى إلى صراط الله المستقيم.

وإذا كان المؤمن يقرأُ كل يوم متدبراً ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، ثم حدثته نفسه بالخروج عنها بشهوة أو بلذة أو بفعل محرم، فإنَّه سيمتنع ويكون مع نفسه بمجاهدة، وسيحرص على أَطرِها ومنعها وردها عن الدخول فيما حرم الله عَزَّ وَجَلَّ أو عن الخروج عن صراطه المستقيم، عملاً بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

والمعاصي التي نهى الله عباده عنها على قسمين: كبائر وصغائر، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر]؛ أي: مكتوبٌ على العبد وسيلقاه في موازين سيئاته يوم القيامة؛ ولهذا قال جلَّ وعلا في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]. فالله جلَّ وعلا أحصى ذلك كله، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ [المجادلة: ٦]؛ فاللذة المحرمة تفنى وتنتهي في وقتها، ولكن الذي يبقى عواقبها السيئة كما قيل:

تفنى اللذاذة ممَّن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعارُ

تبقى عواقب سوءٍ من مغبتها ... لا خير في لذةٍ من بعدها النارُ[١]

يقول أحد السلف: «إني لأذنب الذنب فأرى ذلك في خُلق زوجتي وخُلق دابتي»[٢].

وهذه من الأمور التي في الدنيا، أما التي في الآخرة فهي أعظم وأخطر، والله ﷻ مدح عباده المؤمنين باجتناب الكبائر وعدم الوقوع فيها، في آياتٍ كثيرة في كتابه ﷻ منها قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء].

---

(١) ذكره الإمام عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الرحمٰن العُليمي المقدسي في كتابه: «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد» (١/ ٩٤).

(٢) من كلام الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولفظه في «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٩): «... فأعرفُ ذلك في خُلق حماري وخادمي». وانظر كتاب: «الداء والدواء» لابن القيم (ص١٣٤).

ولهذا يحتاج السائر على صراط الله المستقيم إلى أن يكون على علم ومعرفة بالكبائر لأجل الحذر منها، فيعرف الكبيرة والعقوبة المترتبة على فعلها، والآيات والأحاديث الواردة في التحذير منها. فإن هذا العلم بإذن الله ﷿ يهديك إلى مجانبتها، وعدم الوقوع فيها.

والمؤلفات في هذا الباب كثيرة، وإن من أحسنها كتاب «الكبائر» للإمام الذهبي ﵀. وقد أحسن فيه وأفاد مؤلفه ﵀ وعرض الكبائر وعلق تعليقات نفيسة جداً يحتاج إليها كلُّ مسلم. وذكر ﵀ في الكتاب قول ابن عباس ﵄ عندما سئل عن عدد الكبائر، أهي سبع؟ قال ﵁: هي إلى السبعين أقرب[١]، قال الذهبي ﵀: «وصدق والله ابن عباس...»[٢]؛ لأن الأمور التي حرّمها الله ﷿ على عباده وتوعدهم على فعلها وهدّدهم إذا وقعوا فيها كثيرة ليست سبعاً ولا عشراً ولا عشرين، ثم أخذ يعدّد في كتابه «الكبائر» ما يزيد على السبعين كبيرة، ويذكر مع كل كبيرة جملةً من أدلتها من كتاب الله وسُنَّة نبيه صلوات الله وسلامه عليه؛ فالمطلوب أن تقرأ الكتاب كاملاً وتتعرف على هذه الكبائر بنية اجتنابها والبعد عنها، وتسأل الله جل وعلا أن يعيذك من الوقوع في شيء منها، لتكونَ من السائرين على صراط الله المستقيم بدون اعوجاج.

ولهذا ينبغي أن يتعلم الإنسان ويتفقه؛ لأن من أساسيات السير على صراط الله المستقيم: العلم بالهدى لتفعله وتقوم به، والعلم بالباطل والمحرّم لتتقيه. ولهذا كان عليه الصلاة والسلام في مناسبات كثيرة يحذر الأمة من كبائر الذنوب، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «**اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات**

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (٦/ ٦٥١).

(٢) انظر كتاب: «الكبائر» للذهبي تحقيق فضيلة الشيخ مشهور حسن آل سلمان (ص٨٩)، طبعة مكتبة الفرقان، الإمارات العربية.

المؤمنات الغافلات»[(١)].

وعن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ألا أُنَبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ؟**» ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين**» وجلس ـ وكان متَّكئاً ـ، فقال: «**ألا وقول الزُّور**» قال: فما زال يكرِّرُها، حتى قلنا: ليتهُ سكت[(٢)].

وعن سلمة بن قيس الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «**ألا إنَّما هنَّ أربعٌ: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النَّفسَ التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، ولا تزنوا، ولا تَسْرِقوا**»، قال: فما أنا بأشحَّ عليهنَّ منِّي، إذ سمعتهنَّ من رسول الله ﷺ[(٣)].

انظر إلى هذه النصيحة العظيمة: فنصح عليه الصلاة والسلام أمته وبيَّن لهم وهداهم إلى صراط الله المستقيم، كما أمره الله جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

أما الثلاث الأول من هذه التي حذَّر منها عليه الصلاة والسلام، فهي في قوله جلَّ وعلا في وصف عباد الرحمٰن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان].

كم هو جميلٌ بالإنسان أن يحاسب نفسه الآن وهو في الدنيا في دار العمل، قبل أن يحاسبه الله تبارك وتعالى يوم القيامة في دار الجزاء.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٣٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٧٥٩).

يقول علي رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل»(١).

وقد بيَّن أهل العلم ـ نصحاً لهذه الأمة ـ ما تميز به الكبيرة من غيرها، فإذا ذكر الله ورسوله ﷺ أمراً فنهى عنه وأعقبه بإخباره بأنه غضب على صاحبه أو لعن صاحبه أو أعد لصاحبه النار فهذا من الكبائر. وكذلك إذا ذُكر له حدٌّ في الدنيا إما بأن يقتل فاعله أو أن يرجم أو أن يجلد أو أن تقطع يده ونحو ذلك، وكذلك ما يقول فيه عليه الصلاة والسلام: **«ليس منه»**، فهذا يدل على أن الأمر أيضاً كبير.

وهذه الضوابط أشار إليها الذهبي وغيره من أهل العلم في المصنفات التي خصت في بيان الكبائر، فإذا تفقهت في هذا الباب وعرفت الكبائر، وعرفت أنها كثيرة، وعرفت أيضاً حد الكبيرة، ووقفت على النصوص التي فيها التحذير من الكبائر؛ يصبح عندك في هذا الباب علمٌ يسلمك الله تبارك وتعالى به من الوقوع في هذه العظائم، ومن ارتكاب هذه الشناعات.

فهذا باب لا بد من حرص العبد عليه، ليكون من السائرين على صراط الله المستقيم بدون انحراف أو اعوجاج. وأسأل الله أن يكرمنا وإياكم أجمعين بالبعد عما حرم، وأن يوفقنا لفعل ما أمر.

وإذا أكرمك الله جل وعلا بالبعد عن هذه الكبائر، فانظر الوعود الكريمة والمُدخل الكريم الذي أعد لك. قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢]؛ فقيَّد سعة المغفرة باجتناب العظائم. وقال تبارك وتعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ [النساء].

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم، قبل الحديث (٦٤١٧).

قيل في المدخل الكريم: الجنة، وقيل: كل خيرٍ يناله العبد في الدنيا والآخرة، وكل سعادةٍ يحظى بها العبد في الدنيا والآخرة.

وقال ﷺ: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفِّراتٌ ما بينهنَّ، إذا اجتنب الكبائر»**(١).

ولهذا لا بد في الكبيرة من توبة، وأما الصغائر فإن الحسنات تمحوها بإذن الله جلَّ وعلا؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وكما قال ﷺ: **«وأتبع السيئة الحسنة تمحها»**(٢). لكن الحسنة لا تمحو السيئة الكبيرة؛ لأن الكبيرة لا بد أن تتوب منها.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس منكم أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فأماتهم الله تعالى إماتة؛ حتى إذا كانوا فحماً أُذن بالشفاعة، فجيءَ بهم ضَبائرَ ضَبائرَ، فبُثُّوا على أنهارِ الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبَّة تكونُ في حميل السَّيل»**، فقال رجلٌ من القومِ: كأنَّ رسول الله ﷺ قد كان بالبادية(٣).

هذا حال أهل الكبائر، من الزنا، والسرقة، وعقوق الوالدين، والكذب، والغش، والغيبة، والنميمة، أليس من الجدير بنا الآن ونحن في الحياة أن ننظر في هذه الكبائر ونعرفها ونحذر منها ونسأل ربنا جلَّ وعلا أن يباعدنا عنها، لا أن نستمر في هذه الحياة متغافلين وكأن الأمر لا يعنينا ولا يهمنا؟! إلى أن يُداهِمَ الإنسان أجله ثم يلقَ الله بهذه الآثام والجرائم العظام. فالواجب على المسلم أن ينصح نفسه وأن يتقي ربه، وأن يبتعد عما حرم الله تبارك وتعالى عليه.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٧٣).

(٣) رواه مسلم (١٨٥).

ثم إنه مهما كان ذنبك عدداً أو نوعاً، فإن الله ﷻ يتوب على من تاب، ولهذا لا يجوز لأحد منا أن يقنط من رحمة الله أو ييأس من روح الله، بل يبادر الإنسان إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الله ﷻ، والله يغفر الذنب لمن تاب مهما عظم، وانظر إلى هذا النداء المبارك في القرآن العظيم: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، فمن الخير للإنسان والنصح لنفسه أن يتقي الله جلَّ وعلا، وأن يتوب من الذنوب كلها، ويجاهد نفسه على ذلك، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

وأمر آخر يتعلق بالتوبة: يدلنا على عظيم كرم ربنا سبحانه وعظيم إحسانه ﷻ، مع أنه جلّ وعلا لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين. قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٥].

ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي! لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً؛ يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»(١).

وانظر إلى كرم الله وعظيم إحسانه في حق التائب، يقول عليه الصلاة والسلام: «**لله أشدُّ فرحاً بتوبةِ عبده، حينَ يتوبُ إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرضِ فلاةٍ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابُه، فأيسَ منها. فأتى شجرةً، فاضطجع في ظلِّها، قد أيسَ من راحلته، فبينما هو كذلك، إذا هو بها قائمةً عنده، فأخذ بِخِطامها، ثمَّ قال من شدَّةِ الفرحِ: اللَّهُمَّ أنتَ عبدي وأنا ربُّكَ، أخطأ من شدة الفرح**»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

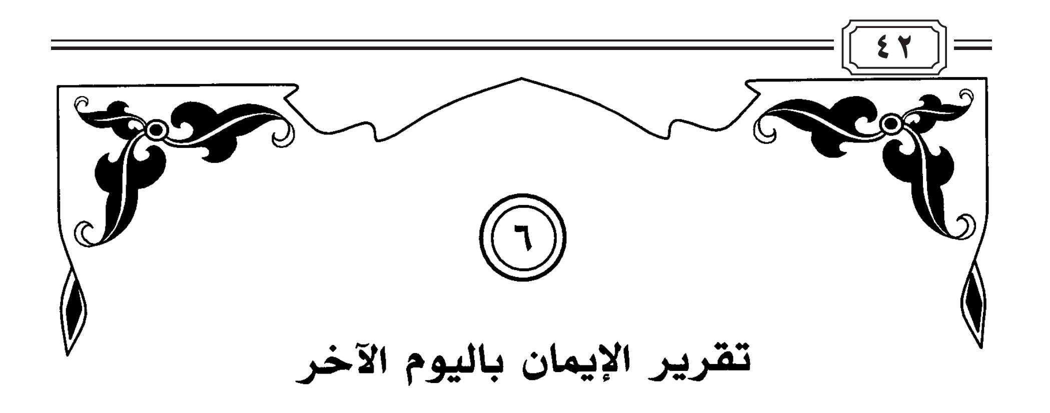
(٢) رواه مسلم (٢٧٤٧).

فالله ﷻ يفرح بتوبة التائبين ويحب من عباده أن يتوبوا، وأرسل الرسل وأمر في كتابه أهل العلم والدعاة أن يرشدوا الناس ويدعوهم إلى التوبة، فباب التوبة مفتوح أمام الإنسان ولا ينقطع إلا بأحد أمرين: إذا غرغرت الروح وعاين الإنسان الموت؛ لأن توبة مشاهد الموت مثل توبة فرعون عندما أدركه الغرق، فهي مردودة.

ولا تقبل التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها؛ لأن الناس إذا رأوها آمنوا جميعاً، والتوبة حينئذ لا تنفع، فالتوبة التي في الغيب هي النافعة. وعلى كل واحد منا أن ينصح لنفسه وأن يقبل على الله ﷻ تائباً منيباً، وأن يحرص على الثبات على هذا الصراط المستقيم.

والخلاصة: أن من أساسيات الثبات على الصراط المستقيم: الحذر من الكبائر، ويتطلّب أموراً عدة: كالعلم بالكبائر ومعرفتها، كما يتطلب مجاهدة النفس على البعد عنها، والحذر من الوقوع فيها والتوبة مما سلف، وكان وفوق هذا كلّه الاستعانة بالله تبارك وتعالى على السلامة منها والثبات على الاستقامة.





٦

تقرير الإيمان باليوم الآخر

ومن هدايات هذه السورة المباركة تقرير الإيمان باليوم الآخر؛ ذلك اليوم العظيم الذي يقف الناس فيه بين يدي ربّ العالمين جل وعلا، ليجازي ﷻ الناس على ما قدّموا من أعمال في هذه الحياة: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم]. فسورة الفاتحة تقرر الإيمان باليوم الآخر وترسخ هذه العقيدة في قلوب المؤمنين من خلال تكرارهم لهذه السورة مرّات وكرّات في لياليهم وأيامهم؛ ففي هذه السورة يقول جلّ وعزّ عن نفسه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: مالك يوم الحساب والعقاب، سُمي بهذا الاسم لأن الناس يدانون فيه بأعمالهم ويجزون فيه على ما قدموه في هذه الحياة.

فالله جل وعلا هو الديّان، كما جاء في حديث عبد الله بن أُنَيس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة ـ أو قال: العباد ـ عراة غرلاً بُهماً**» قال: قلنا: وما بهماً؟ قال: «**ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوتٍ يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديَّان، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحدٍ من أهل الجنة حق حتى أقصَّهُ منه؛ ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحدٍ من أهل النار عنده حق، حتى أقصَّهُ منه، حتى اللَّطْمَةَ**»، قال: قلنا: كيف وإنا إنما نأتي الله ﷻ عراة غرلاً بهماً؟! قال: «**بالحسنات والسيئات**»[1].

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٩٥)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٣٦٠٨).

فالسورة قررت هذا الأصل العظيم في قوله تبارك وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ كما أنها تضمنت هذا المعنى في مواضع منها؛ فإن من تمام حمد الله جل وعلا الذي صُدّرت به هذه السورة أن يبعث العباد ويجازيهم ويثيب مطيعهم أعظم الثواب وأفضل الجزاء، ولهذا أهل الجنة إذا منّ الله عليهم يوم القيامة بدخولها يستهلون دخولها بحمد الله يقولون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فمنّ عليهم في حياتهم الدنيا بطاعة الله والهداية للإيمان، ومنّ عليهم يوم القيامة بدخول جنته ونيل رضاه وتحصيل ثوابه جل وعلا الذي أعده لأهل الإيمان، ولعباده المتقين، فإذا دخلوا قالوا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾؛ أي: لولا هدايته تبارك وتعالى لنا لما تحقق لنا هذا النعيم، ولما نلنا هذا الإنعام وهذا الفضل وهذا الإكرام، فهو محض فضل الله ومنته جل وعلا، وهو المانّ ﷻ على من شاء من عباده.

كما أن قوله في السورة: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه تقرير لهذا الأصل العظيم؛ لأن ربّ العالمين هو المتصرّف في هذا الكون المدبر له جل وعلا، ومن جملة تدبيره لهذا الكون وتصرفه فيه سبحانه أنه أعد لمن أطاعه عظيم الثواب وجميل المآب، وأعدّ لمن عصاه عقابه الشديد. ولهذا أعقب ذلك بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾. فمطيع الله جل وعلا نائل رحمة الله وثوابه، والعاصي نائل سخط الله وعقابه؛ والناس قسمان: مطيع وعاصٍ، والناس فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

وكذلك في دلالات السورة على هذا الأصل قوله تبارك وتعالى في بيان حال أهل الإيمان: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ فإنَّ من يتأمل هذه الآية العظيمة وحكمة الله البالغة فيها، يدرك أن الله تعالى لا يسوي بين العابد الموحد، وبين من شأنه إما التكذيب أو التولي عن طاعة رب العالمين.

ولهذا لما ذكر الله تبارك وتعالى النار في القرآن الكريم قال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ [الليل]؛ أي: كذب الخبر وتولى عن الأمر فلا يصدّق الأخبار التي جاءت بها الرسل، ولا يمتثل الأوامر التي جاءوا بها، فهذا لا يسوّى مع أهل الإيمان وأهل الطاعة وأهل الاستعانة بالله تبارك وتعالى. وكذلك القِسمة الثلاثية لحال الناس والتي ختمت بها السورة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فذكر جل وعلا أن أقسام الناس ثلاثة: قسم منعم عليهم وهم أهل الإيمان وأهل صراط الله المفضي بأهله إلى نيل رضا الله تبارك وتعالى ودخول جنات النعيم. وقسم مغضوب عليهم؛ أي: غضب الله تبارك وتعالى عليهم.

وقسم ضالون منحرفون عن الصراط السوي والجادة المستقيمة.

فهل هؤلاء يُجمعون يوم القيامة في دار واحدة؟ ويكون لهم مكان واحد؟ ويسوَّى بينهم؟ حاشا والله، بل إن المنعم عليهم لهم جنات الله ونعيمه وثوابه، والمغضوب عليهم والضالون: لهم نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى. ولهذا فرق بين الفريقين: فريق الجنة، وفريق السعير.

فالمؤمن إذا كان متدبراً لهذه السورة العظيمة لا يزال كل يوم مستحضراً للإيمان باليوم الآخر، يوم الوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى، ومستشعراً أنه إذا حافظ على الطاعة وواظب على العبادة فإنه سيلقى ثواب الله تبارك وتعالى ورضاه، وأنه إذا خرج عن صراط الله المستقيم وانحرف عن الجادة السوية فإنه سيلقى عقاب الله تبارك وتعالى. وليس الأمر بالأماني: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]؛ والله تبارك وتعالى عدل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذا اليوم العظيم له أسماء كثيرة جاءت في القرآن الكريم، وتعدّد الأسماء يدل على تنوع الصفات، ولهذا جاءت من أسمائه في القرآن:

يوم التغابن، والصاخّة، والقارعة، والطامّة، والغاشية، واليوم الآخر، والساعة؛ فهذه أسماء كثيرة لهذا اليوم، بحسب الأوصاف التي تتعلق به.

ومن جملة هذه الأسماء هذا الاسم الذي في سورة الفاتحة: يوم الدين؛ أي: يوم الجزاء والحساب. ولا بد أن يكون إيمان المؤمنين بيوم الدين إيماناً جازماً لا شكّ فيه ولا ريب. ومن شك في يوم الدين كفر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات]؛ أي: أيقنوا ولم يشكّوا، فلا بد من إيمان جازم وتصديق وثقة واعتقاد بأن هناك يوم دين، وجزاء، وحساب، ووقوف بين يدي الله تبارك وتعالى. والمؤمن كلما مضى في هذه الحياة وخطى فيها خطوات، فإن كلّ خطوة يخطوها تدنيه من اليوم الآخر وتبعده من الدنيا، كما قال من قال:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يدني من الأجل

أي: من لقاء الله والوقوف بين يديه.

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»[(١)].

ولاحظ قوله: غداً حساب ولا عمل؛ لأن غداً ـ يوم الدين يوم الحساب ـ لا مجال للأعمال فيه، وإنما مجال الأعمال ووقتها هو هذه الحياة، ولاحظ مدّة إقامتك في هذه الحياة مقارناً ذلك بمدّة أو أوقات يوم القيامة، يقول عليه الصلاة والسلام: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين**»[(٢)]. وكثير من الناس قد لا يبلغ الستين بل قد ينتهي أجله في شبابه، ومنهم من يتجاوز الستين أو يتجاوز السبعين، لكن في الجملة

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم، قبل الحديث (٦٤١٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٦٠).

أعمار الأمة بين الستين والسبعين، فهذه مدة الإقامة في هذه الحياة الدنيا منها خمسة عشر عاماً قبل التكليف وثلث المتبقي يذهب بالنوم الذي يُرفع القلم فيه عن العبد، فالصافي ثلاثون أو خمس وثلاثون سنة.

لكن الناس في عرصات يوم القيامة قبل بدء الحساب عندما تدنو الشمس من الخلائق وتكون منهم قدر ميل ويعرق الناس ويتفاوتون في العرق، يقفون في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة!! ما المقارنة بين مدة بقاء الإنسان في هذه الحياة وبين خمسين ألف سنة يقفها على أرض لا بناء فيها ولا شجر ولا زرع ولا غير ذلك ويستوي في هذا الوقوف الرئيس والمرؤوس، والصغير والكبير، والذكر والأنثى؟؟ يقفون حفاة عراة غرلاً بهماً، ثم بعد ذلك يجيء الرب ﷻ للفصل بين العباد والقضاء بينهم لأنهم إذا طالت مدة قيامهم يذهبون إلى الأنبياء ويطلبون منهم الشفاعة عند الله في أن يبدأ بالحساب، فيأتون إلى آدم فيعتذر، ويأتون إلى نوح فيعتذر، ويأتون إلى إبراهيم فيعتذر، ويأتون إلى موسى فيعتذر، ويأتون إلى عيسى فيعتذر، وكل واحد منهم يحيلهم إلى الآخر، ويحيلهم عيسى عليه السلام إلى محمد ﷺ، فيذهب عليه الصلاة والسلام ويخرّ لله ساجداً تحت العرش، ويحمدُ الله بمحامد يعلّمه الله إياها «**ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع**»[(١)]. وهذا هو المقام المحمود الذي قال الله فيه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء].

يغبطه عليه الأولون والآخرون والنبيون والمرسلون، فيشفع للناس عند الله في أن يبدأ حسابهم وحينئذ يجيء الرب كما قال الله تعالى في القرآن[(٢)]: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر]. يدرك حينئذ

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).
(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٤١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٥٥١).

الإنسان أن الحياة الحقيقية هي تلك الحياة الآخرة، وأما هذه الحياة فهي حياة فانية. وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]؛ أي: الملك صفوف من وراء صفوف محيطة بالخلائق، ويجيء الربّ جل وعلا لفصل القضاء، وهذا من كمال عدله ﷻ؛ ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]؛ أي: أن جهنم يؤتى بها تجرّ إلى أرض المحشر، كما قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها**»[١]. فتأتي تغيَّظ على أهلها وتزفر، نسأل الله جل وعلا أن ينجينا وإياكم من النار.

ثم ينصب صراط على متن هذه النار. وقد جاء في بعض الأحاديث أنه أدقّ من الشعر[٢]، ويؤمر الخلائق بالمرور عليه، فيمرون مروراً متفاوتاً على قدر أعمالهم، يقول عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن عليها كالطَّرْف وكالبرْق وكالرِّيح وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فناجٍ مُسَلَّمٌ وناجٍ مخدوشٌ ومكدوسٌ في نار جهنم**»[٣]. وأمّا الكافر فإنَّه يؤتى به يمشي على رأسه إلى أن يدخل النار، قال العلماء: لأنه في هذه الدنيا نكس الدين والإيمان فيجازى من جنس عمله، كما قال ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ [الإسراء: ٩٧].

عن قتادة: حدثنا أنس بن مالك ﵁: أنَّ رجلاً قال: يا نبيَّ الله، يُحشَرُ الكافر على وجهه يوم القيامة؟! قال: «**أليس الذي أمشاه على الرِّجلين في الدنيا، قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة؟**»، قال

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢).

(٢) قال أبو سعيد الخدري ﵁: «بلغني أنَّ الجسرَ أدقُّ من الشعرةِ، وأحدُّ من السيف». رواه مسلم (١٨٣). وله شاهد من حديث عائشة مرفوعاً: «**ولجهنم جسرٌ أدقُّ من الشعر، وأحدُّ من السيف**». رواه أحمد (٦/ ١١٠).

(٣) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

قتادة: بلى وعزَّة ربِّنا[١]. ثم الناس من حيث دخول النار أو النجاة منها ودخول الجنة، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم يدخلون النار ويخلدون فيها ويبقون فيها أبد الآباد لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، وهذه العقوبة هي لكل كافر ومشرك وملحد، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر].

والقسم الثاني يدخل الجنة دخولاً أولياً بدون حساب ولا عقاب وهؤلاء هم المقتصدون والسابقون بالخيرات، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر]. ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾؛ أي: الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، لكنَّ المقتصد والسابق بالخيرات يدخلون جنات عدن بدون حساب ولا عقاب؛ فالمقتصد هو الذي فعل الواجب وترك المحرم، والسابق بالخيرات هو الذي زاد بفعل المستحبات والبعد عن المكروهات والمنافسة في فعل الخيرات، فهؤلاء يدخلون دخولاً أولياً.

أما الظالم لنفسه: فهو القسم الثالث من هذه الأقسام وهو عرضة للعقاب والحساب، وإذا عذّبه الله تبارك وتعالى في نار جهنم يوم القيامة؛ فإنه ﷻ لا يخلده فيها لأنه لا يخلد في النار إلا الكافر المشرك. أما أصحاب الكبائر إذا دخلوا النار يوم القيامة بذنوبهم

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

وكبائرهم التي هي دون الكفر بالله تبارك وتعالى، فإنهم يبقون فيها ليطهروا ويمحصوا ويكونوا بعد ذلك مؤهّلين لدخول الجنة، والجنة دار الطيب المحض؛ أي: الطيب الخالص، وهي للطيبين، ولهذا تقول الملائكة: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. فإذا كان العبد عنده طيب وفيه خبث؛ فإن الخبث الذي فيه يطهر منه، ثم يكون دخوله الجنة بعد التنقية والتمحيص. ولهذا عصاة الموحدين دخولهم للنار دخول تمحيص وتطهير، والكفار دخولهم للنار دخول تعذيب وتخليد وتأبيد. فهذه أقسام الناس يوم القيامة.

ثم إذا تكامل عصاة الموحدين خروجاً من النار ودخولاً الجنة يذبح الموت ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة! فَيَشْرَئِبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادى: يا أهل النار! فَيَشْرَئِبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت ثم قرأ:** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ **وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا** ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]»[(١)].

والكتاب والسُّنَّة جاء فيهما البيان الشافي والإيضاح الكافي لما يكون في ذلك اليوم العظيم من مجازاة ومحاسبة ومعاقبة وانقسام الناس إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير. ولهذا كان من أصول الإيمان العظيمة وأسسه المتينة الإيمان باليوم الآخر، ومن لا يؤمن باليوم

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

الآخر فهو كافر بالله، لا يقبل الله تبارك وتعالى منه صرفاً ولا عدلاً.
ولهذا جاء ذكره في نصوص كثيرة مع أصول الإيمان كقوله تبارك وتعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]. فذكر هذه الأصول: الإيمان بالله والإيمان بالملائكة والإيمان بالكتاب والإيمان بالرسل، والإيمان باليوم الآخر في قوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٥]؛ أي: المرجع والمآب.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء]، فالإيمان بالله واليوم الآخر أصلٌ من أصول الإيمان التي هي قواعد للدين لا قيام له إلا عليها، ولهذا لما جاء جبريل ـ في الحديث المشهور ـ إلى النبي ﷺ قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[(١)].

والمؤمن وهو يقرأ كتاب الله ﷻ لا يزدادُ في هذا الأمر إلا رسوخ إيمان؛ لأن الآيات البينات والدلائل الواضحات على هذا اليوم وعلى الوقوف بين يدي الله والرجوع إليه كثيرة في كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ.
ولهذا تجد يمر عليك في القرآن آيات كثيرة: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العلق]، ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]، ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية].

وهذه الآيات وغيرها تهديك وتدلك إلى رجوعك إلى الله وإيابك

---

(١) رواه مسلم (٨).

إليه ومصيرك إليه وانتهائك إليه، وأنك ستقف بين يديه وأنه سيحاسبك تبارك وتعالى؛ فلا يزال المؤمن بقراءته للقرآن يزداد رسوخاً وإيماناً بهذا اليوم، ولهذا قال العلماء: الإيمان باليوم الآخر على درجتين:

الدرجة الأولى: وهي التي يفترض أن تكون موجودة في كل مسلم ومن لم تكن موجودة فيه فهو كافر ليس من أهل هذا الدين، وهي أن يكون مصدّقاً ومؤمناً ومعتقداً بأنّ هناك يوم حساب ويوم عقاب ويوم وقوفٍ بين يدي الله تعالى يجازي فيه ﷻ الناس بأعمالهم وبما قدموا في هذه الحياة. هذه يقال عنها: الإيمان الجازم، ومعنى الجازم الذي لا يخالطه شك ولا يداخله ريب. وقد مرّ معنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾؛ أي: إيمان لا ريب ولا شك فيه. وإذا وجد شك في الإيمان باليوم الآخر أو بأي أصلٍ من أصول الإيمان انتفى الإيمان، ولم يبقَ مع وجود الشك.

والدرجة الثانية: للإيمان باليوم الآخر: الإيمان الراسخ وهذا أعلى من الإيمان الجازم، ورسوخ الإيمان؛ يعني: استحضار العبد لهذا اليوم ودوام شفقته منه واستحضاره للقاء الله تبارك وتعالى والوقوف بين يدي الله وباله منشغل في الاستعداد والتهيؤ لهذا اليوم، ولهذا يحظى أهل هذا الرسوخ بمقام عظيم ومنزلة رفيعة عندما يلقون الله تبارك وتعالى: ﴿أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور]، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة] ومعنى ظننت؛ أي: اعتقدت في حياتي الدنيا أني سألقى الحساب.

وهذا الاستحضار مهم، له آثار طيبة في سلوك المرء، وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقد، وضع يده اليمنى تحت خدِّه، ثم يقول: «**اللَّهُمَّ قني عذابك يوم تبعث عبادك**»(١). فكان ﷺ

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٤٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٤٠).

يستحضر الحساب والبعث والقيام بين يدي الله. فالإيمان الراسخ يكون معه استحضار الرجوع إلى الله تبارك وتعالى، والارتحال من هذه الحياة الدنيا، وأن العبد سيقف بين يدي الله جل وعلا.

هذه الدرجة العالية وهي رسوخ الإيمان باليوم الآخر إنما تأتي بقراءة القرآن وقراءة الحديث، وتدبر الآيات والنصوص التي فيها بيان هذا الأمر. وقد صنف أهل العلم مصنفات كثيرة في الإيمان باليوم الآخر، وبعضهم له مصنفات في ذكر النار، مثل كتاب «النار»، أو «الجنة»، أو «أهوال يوم القيامة»، أو مثلاً في بعض تفاصيل الأمور التي تقع يوم القيامة؛ كالميزان، والصراط، أو نحو ذلك. وهذه الكتب لم يرد منها مصنفوها من أهل العلم، الدلالة على الإيمان الجازم فحسب؛ بل وضعوها من أجل أن يقرأها المؤمن فيرسخ إيمانه ويقوى، ويتمكّن ويعرف التفاصيل التي ستكون في ذلك اليوم، فيزداد تعلقاً بالله وطلباً لرحمته وفضله ونعمته، ويزداد أيضاً شفقة وخوفاً من عقاب الله تبارك وتعالى ومقته وسخطه. فالإيمان الراسخ لا يأتي إلا بمثل هذه القراءة.

لاحظ هنا أمراً تجده في نصوص كثيرة في القرآن والسُّنَّة، يذكر جل وعلا عملاً صالحاً يرضاه أو أمراً ينهى عباده عنه، ويذكر قبل ذلك الإيمان بالله وباليوم الآخر كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النور: ٢]. وهكذا أيضاً ترد في السُّنَّة أحاديث عديدة تذكر أوامر ونواهي مقرونة بالإيمان باليوم الآخر، كقوله عليه الصلاة والسلام: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[١]؛ **«لا يحل لامرأة تؤمن بالله**

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة، ليس معها حُرْمة»[(١)]. فالغرض من هذا: استحضار الذهن للإيمانِ بالله وباليوم الآخر؛ أما استحضار الإيمان بالله فلأنَّ الله هو المقصود بالعملِ جل وعلا، وأما استحضار الإيمان باليوم الآخر فلأنه يوم الجزاء على العمل.

ولهذا ينبغي أن يكون هذا الاستحضار دائماً لدى العبد ولا سيما عند إرادة فعل الطاعة، أو إرادة الكف عن المعصية.

ولا يزال هذا الإيمان يهدي العبد إلى كل خير، ويدلّه على كل فلاح وعلى كل سعادة في الدنيا والآخرة، أمّا إذا غفل عن هذا الإيمان أو تغافل عنه، بدأ الضعف يدخله ويخالطه، وبدأ دينه يرق وبدأ إيمانه يضعف. فإذاً الحاجة ماسّة إلى تقوية القلب بالإيمان بالله واليوم الآخر وبقية أصول الإيمان: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]؛ أي: لم يتمكّن في قلوبكم، فأهل الإيمان في الإيمان درجات ليسوا فيه على درجة واحدة، وقد كان الصحابة ﷺ يجلسون عند النبي ﷺ ويعظهم ويذكرهم باليوم الآخر، كأنهم يرون الجنة والنار رأي العين! ويقول عليه الصلاة والسلام: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عَيْنٍ، فليقرأ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الإنشقاق]»[(٢)]. والمراد أن قراءة هذه السور بتدبر، تجعلك كأنك تنظر إلى اليوم الآخر وإلى أهواله. ثم إنّ اليوم الآخر في حق كل واحد منّا يكون بمفارقة روحه لجسده، ولهذا قال العلماء: من مات قامت قيامته؛ لأن بمجرّد الموت ينقطع العمل؛ فلا يبقى له مجال أن يصلّي، أو يصوم، أو

---

(١) رواه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٣٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٦٤).

يتصدق، أو يزكي. أحد السلف حاسب نفسه يوماً فقال لها: يا نفس إذا متّ من يصلّي عنك، من يحجّ عنك، من يصوم عنك، من كذا من كذا؟ والقبر أوّل مراحل الآخرة، وفي القبر نعيم أو عذاب، يبدأ عند إدخال الميت قبره. ولهذا قال العلماء في تعريف الإيمان باليوم الآخر: هو الإيمان بكل ما يكون بعد الموت بدءاً من دخول الإنسان قبره. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ، أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكَر والآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينوَّر له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أَرجِعُ إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً، قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله، لا أدري! فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التَئِمي عليه، فتَلتَئِم عليه، فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذَّباً، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك**»(١).

وهذه يسميها أهل العلم: الأصول الثلاثة؛ لأنَّ الميت يسأل عنها أول ما يدخل قبره وهو اختبار يحتاج إلى استعداد وتهيؤ، فما هو تهيؤنا في هذه الأصول الثلاثة؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً**»(٢).

فالمؤمن ينعم في قبره والكافر يعذب في قبره. كما قال تعالى:

---

(١) رواه الترمذي (١٠٧١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٥٤٤).

(٢) رواه مسلم (٣٤).

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر]، فآل فرعون صباحاً ومساءً يعرضون على النار إلى يوم القيامة، ويوم القيامة يدخلون أشدّ العذاب. وقد قال عليه الصلاة والسلام: **«عذاب القبر حقّ»**[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: **«تعوذوا بالله من عذاب القبر»**[٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: **«إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»**[٣].

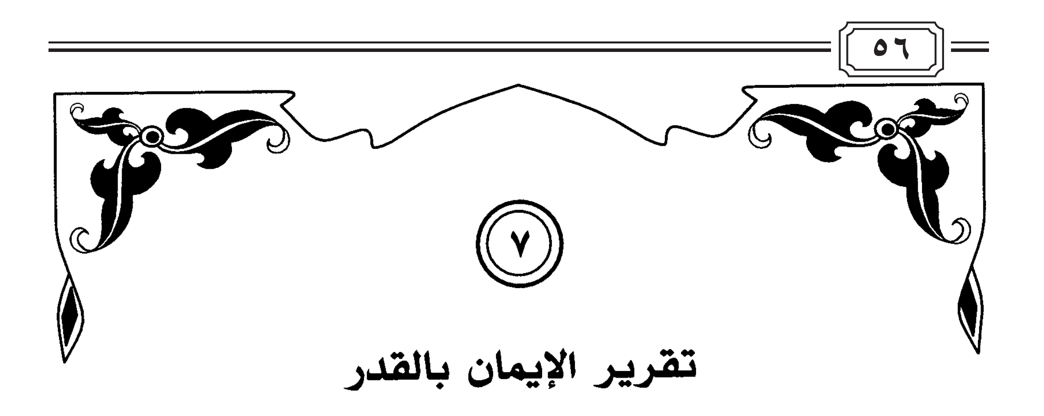
ومتى يموت الإنسان ويفارق هذه الحياة؟ لا يدري! فقد يكون بعد ساعة أو ساعتين، أو يوم أو يومين! يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد: ٣٨]، ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. ولهذا ينبغي على الإنسان أن يكون مستعداً متهيئاً لهذا اليوم، مستحضراً للقاء الله تبارك وتعالى والوقوف بين يديه، وأنه مجزي ومحاسب. والوزن يوم القيامة بمثاقيل الذرّ، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة].

نسأل الله العافية والسلامة والتوفيق لما يحبه ويرضاه.



---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٧٤)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصحيحة» (١٣٧٧).
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٧).
(٣) رواه مسلم (٥٨٨).



تقرير الإيمان بالقدر

ومن هدايات هذه السورة بيانها وتقريرها للإيمان بأقدار الله ﷻ الذي هو أصل من أصول الإيمان؛ فإن أصول الإيمان ستة بُينت في كتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ، ومن هذه الأصول: الإيمان بالقدر وأن الله على كل شيء قدير، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الأمور كلها تحت تدبيره وبتصريفه، لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه ﷻ.

فهذا أصل من أصول الإيمان لا يقبل من العبد طاعة، ولا ينتفع بعمل ما لم يكن مؤمناً به. ولهذا لما بلغ ابن عمر رضي الله عنه عن جماعة أنهم أنكروا القدر، قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أُحدٍ ذهباً فأنفقه، ما قَبِلَ الله منه حتى يؤمن بالقدر. ثم روى عن أبيه حديث جبريل الطويل: وفيه سؤاله النبيَّ ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها[1].

فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، وأساس من أسس الدين. ومثل الإيمان مثل الشجرة التي لها أصل، لا قيام لها إلا عليه؛ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم]؛ وهذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى في القرآن

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٨).

للإيمان، فالإيمان مثله مثل الشجرة لها أصل ثابت إذا قُطع أصلها لم يبق الشجرة بل تموت، والإيمان له أصول ثابتة فإذا انتفت أو انتفى بعضها لم يبق إيمان وهذا هو معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة]؛ لأن الإيمان والإسلام لا يقومان إلا على هذه الأصول التي منها الإيمان بالقدر. ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده»[1]، وكلامه واضح رضي الله عنه وأرضاه؛ أي: أن التكذيب بالقدر تكذيب بالإيمان وتكذيب بتوحيد الرحمٰن تبارك وتعالى. ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً قول الإمام أحمد رحمه الله: «القدر قدرة الله»[2]، والله جلّ وعلا قدير على كل شيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]. فالذي يكذب بالقدر يكذب بقدرة الله فهو مكذبٌ بالله تبارك وتعالى، وهذا كافر ليس بمسلم. ولهذا أيضاً قال الحسن البصري رحمه الله: «من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام»[3].

فالإيمان بالقدر أصل عظيم من أصول الإيمان. ولهذا جاءت الآيات الكثيرة في القرآن الكريم مقررةً ذلك، وأنّ الأمور كلّها بقدر الله عز وجل: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب]، وقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير]. والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً في القرآن الكريم تقرر أن الأمور

---

(١) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب «السُّنَّة» (٣/ ٤٢٢)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (٤/ ٧٤٢).

(٢) رواه ابن هاني في كتابه «مسائل الإمام أحمد» (٢/ ١٥٥) تحقيق زهير الشاويش.

(٣) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة» (٤/ ٧٥٥).

كلها بقدر الله، وهو الذي أوجد هذا الكون من العدم، وخلق الناس بعد أن لم يكونوا ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات]. فالإنسان لم يكن موجوداً، فأوجده الله وجعل له السمع والبصر والقدرة والإرادة، فهذا كلّه بتقدير الله ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾. والله جل وعلا قادر على كل شيء، وكل شيء في هذا الكون لا يكون إلا بإرادة الله وقدرته ومشيئته؛ لأن هذا الكون ملك الله، يتصرف فيه كيف يشاء، ويقضي فيه كيف أراد، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه؛ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر]، فالأمور كلها بتقدير الله وبيده، وهو المتصرف تبارك وتعالى في هذا الكون والمدبر له. فالإيمان بالقدر أصل عظيم من أصول الإيمان، وسورة الفاتحة تقرر هذا الأصل العظيم في مواضع كثيرة منها:

فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه حمدك الله وثناؤك عليه وعلى أسماءه الحسنى وصفاته العظيمة. ومن أسمائه ﷻ التي تحمده عليها: القدير؛ فالله تعالى يحمد على أسمائه وصفاته ونعمه وعطائه. ومما تحمد الله تعالى عليه نعمة الإيمان التي هداك إليها ومنّ عليك بها، وهذا إيمان منك بقدرة الله، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ [الحجرات]. فهدايتك للإيمان فضل من الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [النور]، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات]، فالإيمان منة من الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٣﴾ [النساء]، والأمر كلّه لله؛ فإذا قلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فأنت تحمد الله على أسمائه وصفاته وعظمته وجلاله، وكمال قدرته، وعظيم إرادته،

وعلى تصرّفه وتدبيره في هذا الكون، فالحمد فيه الإيمان بالقدر.

وفي قولك: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أيضاً الإيمان بالقدر؛ لأن الإيمان بالقدر من الإيمان بربوبية الله؛ فإذا قلت: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آمنت بأنّ الله ﷻ رب العالمين وآمنت بمعاني الربوبية؛ فإن من معاني الربوبية: الخلق والرزق، والتصرف والتدبير، والإحياء والإماتة.

وقولك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيه إيمان بالقدر لأنك أيضاً ترجو رحمة الله، ومن خلال هذا الرجاء تعرفُ أنك فقير إلى الله محتاج إليه، وإلى هدايته، ومنّه وعطائه وفضله ورحمته، لا غنى لك عنه طرفة عين.

كذلك في قولك: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيمان بالقدر، فأنت تستعين بالله لأنه هو القادر على كل شيء، وتطلب عونه لأن بيده أزمَّة الأمور، ويتصرف في خلقه تبارك وتعالى كيف يشاء.

في قولك: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إيمان بالقدر لأنك تطلب الهداية ممن بيده الهداية، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦][١]، وقال له: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وكان عليه الصلاة والسلام إذا خطب الناس قال: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»[٢].

وجاء في حديث أبي ذر الطويل: «**أنّ الله تعالى يقول: يا عبادي كلكم ضال إلّا من هديته، فاستهدوني أهدكم**»[٣]؛ أي: اطلبوا مني الهداية، أوفقكم إلى سلوك طريقها، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام يحثُّ أصحابه على سؤال الله الهداية، كقوله لعليٍّ رضي الله عنه: «**قل: اللَّهُمَّ اهدني**

---

(١) نزلت في أبي طالب، البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

(٢) رواه مسلم (٨٦٨).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وسدِّدني»[(١)]، وقوله: «**اللَّهُمَّ إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**»[(٢)]، وقوله: «**اللَّهُمَّ اهدني فيمن هديت**»[(٣)] في دعاء القنوت. وثبت أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت، اللَّهُمَّ إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**»[(٤)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ مصرِّف القلوب، صرِّف قلوبنا على طاعتك**»[(٥)]. وكان أكثر دعائه: «**يا مقلِّب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»[(٦)].

وأيضاً قولك: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هو إيمان منك بأن النعمة نعمة الله سواء الصحة أو المال أو الهداية للطاعة والإيمان، فالسورة تدل وتشتمل على الإيمان بالقدر من وجوه كثيرة. والمسلم الذي يردد هذه السورة ويستشعر معانيها ويؤمن بدلالتها، لا بد أن يؤمن بالقدر، وأن الأمور كلها بقدرة الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وينبغي أن يعلم كل مسلم أهمية الإيمان بالقدر وعظيم مكانته وكبير عوائده على العبد في دينه ودنياه، فهو يعطي القلب قوة وثقة بالله وحسن صلة به وإقبالاً على طاعته وقوة في الافتقار إليه والالتجاء إليه وسؤاله وحده، والتوكل عليه وحده وطلب العون منه والإكثار من سؤاله الهداية والتوفيق والسداد، وأيضاً قوّة العبادة والطاعة وقوة الصبر في المصائب؛

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٥). (٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) رواه أبو داود (١٤٢٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٣٩٢).

(٤) رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧)، واللفظ له.

(٥) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٦) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٤٧).

لأن من يؤمن بالقدر يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، فالإيمان بالقدر من أسباب هداية القلوب إلى كل خير وإلى كل فلاح وإلى كل رفعة في الدنيا والآخرة. ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[١].

فالمؤمن في كل أحواله ملتجئ إلى الله: إذا كان صحيحاً معافى أو غنياً يحمد الله، وإذا كان مريضاً يصبر ويسأل الله، وإذا كان فقيراً يدعو ربه بالدعاء المأثور عن رسوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك**»[٢]؛ فهو يلتجئ إلى الله؛ لأنه مؤمن بأن الأمور كلها بقدرته، ولهذا: الإيمان بالقدر له أثر مبارك وثمار عظيمة ـ لا حصر لها ولا عدّ ـ في صلاح العبد في دينه ودنياه. بينما إذا عطل الإنسان الإيمان بالقدر فسد عليه كل شيء، وحرم من كل خير، وباء بكل خيبة وحسرة وندامة في الدنيا والآخرة. وهذا مما يبين لنا أنّ الإيمان بالقدر أساس لا تقوم شجرة الإيمان إلا عليه، فلا تثمر ولا تزهر ولا تينع إلا بوجود هذا الأصل المبارك؛ وكلما قوي إيمان العبد بالقدر، قوي الخير فيه وزاد وتنامى وكثُر.

ومما ينبغي أن يُعلم: أن الكلام في موضوعات القدر على طريقتين:

الطريقة الأولى: أن يكون خوض الإنسان في مسائل القدر بعقله المجرد وبفكره القاصر، وبترك كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فيضع القرآن

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٦٣)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٦٤).

والسُّنَّة جانباً ثم يخوض بعقله وبفكره، وبرأيه المجرد في مسائل القدر ودقائق أحكامه. فهذا باطل وضلال ولا يفضي بصاحبه إلا إلى الردى، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت].

ومن ذلك: أن يخوض المرء في مسائل القدر على وجه الاعتراض على الله وعلى قدره وعلى أحكامه، كأن يقول قائل والعياذ بالله: لماذا فعل الله كذا وكذا، ولم يفعل كذا؟ ولماذا قضى الله بكذا، ولم يقض بكذا؟ وقد نهى الله عباده عن هذا، بقوله سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء]؛ لأنَّ كلَّ ذرةٍ في هذا الكون ملك له جل وعلا، ولهذا كان الاعتراض على الله تبارك وتعالى من أبطل الباطل وأضل الضلال.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا ذُكِر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكر القدر فأمسكوا**»(١). فهذه ثلاثة أشياء أمرنا عليه الصلاة والسلام أن نمسك عند ذكرها، والمراد بالإمساك عند ذكر القدر هو الإمساك عن الخوض فيه بالباطل وبالطريقة المحرمة التي أشرت إليها آنفاً؛ لأن (القدر سرّ الله جل وعلا) كما يقول السلف. ومن حاول بعقله القاصر وفكره الضعيف أن يكشف هذا السرّ، لا يصل إلا إلى الضلال والضّياع.

فالواجب الإمساك عن الخوض في القدر بالطريقة المحرمة، وهذا لا ينفي مشروعية الرجوع إلى النصوص الشرعية في ذلك والإفادة منها لمعرفة الإيمان بالقدر على ضوئها، فلا يكون داخلاً في قوله ﷺ: «**إذا ذُكر القدر فأمسكوا**»؛ كما أن قوله ﷺ: «**إذا ذكر أصحابي فأمسكوا**»، يراد منه الإمساكُ عن سبهم والوقيعة فيهم والكلام فيهم بغير الخير

(١) رواه الطبراني (١٠٤٤٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٥٤٥).

والجميل، فلا ينفي ذكر الصحابة بمناقبهم وفضائلهم، كما جرى على ذلك المحدِّثون في كتبهم التي صنفوها. وقد مدح الله تعالى من يؤدي حق الصحابة ﷺ، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

وأما الخوض في النجوم بما يسمى علم التأثير والاعتقاد فيها ونسبة الحوادث الأرضية إليها، فهذا مما لا يجوز، والجائز من علم النجوم الاستدلال بمواقع النجوم على تحديد اتجاه القبلة، وعلى معرفة المسير، كما قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل]. وعن قتادة قال: إن الله تبارك وتعالى إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقَدْ قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به[1].

الطريقة الثانية (وهي الصحيحة): أن يكون كلام الإنسان في مسائل القدر على ضوء الدليل، فيصل بإذن الله إلى كل قول سديد وإلى كل فعلٍ رشيد. وقد دلت النصوص على أنَّ العبدَ لا يكون مؤمناً بالقدر حتى يؤمن بمراتبه الأربع، التي دل عليها كتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ، كالآتي:

أولاً: الإيمان بعلم الله المحيط بما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون؛ فهو سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر]، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا

---

(١) رواه ابن جرير الطبري (٢١٥٤٩) بسند صحيح.

﴿يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة]. قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ أي: لو رد الله المشركين إلى الحياة الدنيا لعادوا إلى الكفر، وهذا لا يكون؛ لكن الرب العظيم ﷻ، علم هذا الأمر لو كان كيف يكون؟! فأقام حجته عليهم. يقول جل وعلا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك].

الأصل الثاني: الإيمان بأن الله ﷻ كتب مقادير الخلائق، وجميع ما هو كائن في اللوح المحفوظ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر]. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء**»[(١)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان، وما هو كائن إلى الأبد**»[(٢)]. فمن إيمانك بالقدر: إيمانك أن كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج].

الأصل الثالث: الإيمان بمشيئة الله تبارك وتعالى النافذة وقدرته الشاملة، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. قال الله تعالى: ﴿لِمَن

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه الترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٤٥٠).

شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير]. فالأمور كلها بمشيئة الله لا يمكن أن يكون في هذا الكون حركة ولا سكون، ولا حياة ولا موت، ولا خفض ولا رفع، ولا هداية ولا ضلال إلا بمشيئة الله. قيل لأعرابي: بأيِّ شيءٍ عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وحل الهمم. ومن أقوال المسلمين الجميلة: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الأصل الرابع: الإيمان بأن الله خالق كل شيء، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]. قال في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والعالم كل من سوى الله، فكل ما سوى الله خلقه وأوجده الله تبارك وتعالى. وقد جمع أحد أهل العلم: المراتب الأربع للإيمان بالقدر، في بيت واحد، فقال:

علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلق وهو إيجاد وتكوين

يقول ﷺ: «**كلُّ شيءٍ بقدرٍ حتَّى العَجْزُ والكَيْسُ**»[1]. ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ كل شيء بقدر حتى وضعك كفك على ذقنك هكذا بقدر.

وإذا آمنت بأن الأمور كلها بقدر الله، وأن كل ما هو كائن في هذا الكون من هداية وإيمان وصلاح وكفر، وغير ذلك لا يكون إلا بمشيئة الله، قد يرد في ذهنك سؤالٌ يطرح نفسه: لماذا نعمل؟ وهو سؤال طرحه الصحابة على النبي ﷺ.

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار**» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟! فقال: «**اعملوا، فكُلٌّ مُيَسَّرٌ**»، ثم قرأ:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٥).

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[1] [الليل].

وعن عمرانَ بن حُصَينٍ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، فيما يعمل العاملون؟ قال: «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له**»[2].

فالنبي ﷺ أجاب أصحابه بما هو نورٌ وضياء وشفاء للقلوب المؤمنة، وهذا هو الجواب السديد والقول الرشيد في هذه المسألة التي تطرح نفسها: «**اعملوا، فكلّ ميسر لما خلق له**». وهذا الجواب تضمّن أصلين مهمّين في هذا الباب، لا سعادة للناس إلا بتحقيقهما:

الأصل الأول: الإيمان بأنَّ العبدَ له مشيئة، كما دل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «**اعملوا**». أما الذي ليس له مشيئة، فلا يقال له: اعمل، ولا يقال له: اترك. وجميع الأوامر والنواهي التي في القرآن، تدل على أن العبد له مشيئة. وهذه المشيئة خلقها الله جل وعلا وأوجدها فيك، فهداك النجدين؛ أي: الطريقين: طريق الخير وطريق الشر، وبعث لك الرسل وأنزل الكتب وأبان السبيل؛ فأنت تعرف الطريق الذي يُفضي إلى الخير، والطريق الذي يُفضي إلى الشر، ولهذا تجد المسلم يتجه إلى فعل الطاعات، ويبتعد عن ارتكاب المحرمات بتوفيق الله؛ وأما المكره على الفعل بغير اختياره، فلا حساب عليه، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

الأصل الثاني: الإيمانُ بأنَّ الأمورَ كلها بقدر الله وبمشيئته، كما في قوله ﷺ: «**كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له**».

فلا بد مع الإيمان بالقدر، من أمرين:

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩).

الأول: الاعتماد والتوكل على الله، وتفويض الأمور كلها إليه ﷻ.

الثاني: فعل الأسباب، والأخذ بالوسائل. وليتدبر اللبيب الأحاديث التالية:

١ ـ **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله، ما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان»**(١).

٢ ـ **«لو أنكم كنتم توكَّلون على الله حق توكله، لرُزِقْتم كما يُرْزَقُ الطَّير: تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»**(٢).

٣ ـ **«اعْقِلْها وتوكَّلْ»**(٣).

٤ ـ **«إنَّما العلم بالتَّعلُّم، والفقه بالتفقُّه»**(٤).

ولهذا ينبغي أن نعي في هذا المقام العظيم، أن من الإيمان بالقدر: بذل السبب، ومجاهدة النفس على العمل. وقد جمع الله بينهما في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

والتوفيق بيد الله وحده عليه توكلت وإليه أنيب.

❋ ❋ ❋

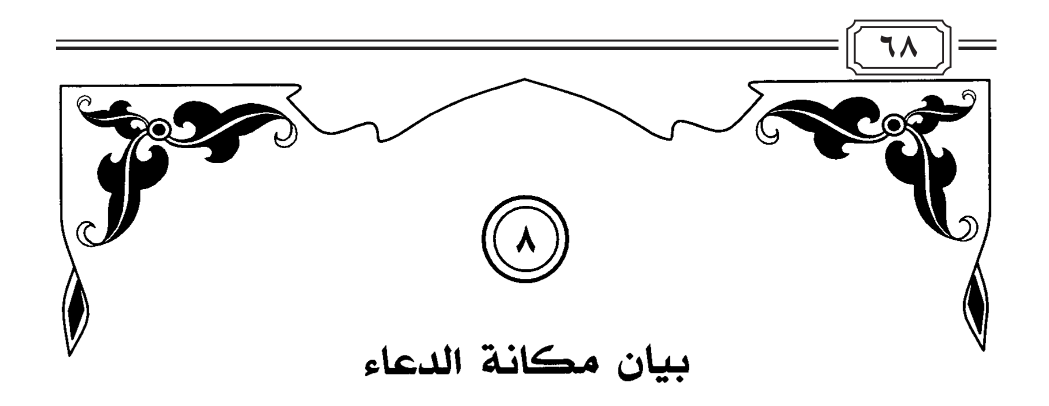
---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٤٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٦١٠).

(٤) رواه الطبراني (١٩/ ٩٢٩)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٦٧).



٨

بيان مكانة الدعاء

إن من الهدايات العظيمة المباركة المستفادة من سورة الفاتحة أن فيها بياناً لمكانة الدعاء، وأهميته وشدَّة حاجة المسلم إليه في كل وقت وحين؛ كما أن فيها بياناً شافياً لآداب الدعاء وشروطه، وما ينبغي أن يكون متحلِّياً به الداعي من جميل الصفات وطيب الآداب.

أما مكانة الدعاء من خلال سورة الفاتحة فإن لبّها دعاء الله جل وعلا وسؤاله والتضرع إليه، وهي فاتحة القرآن فكتاب الله ﷻ افتتح بالدعاء، كما أنه اختتم به؛ فآخر سورة في القرآن سورة الناس هي دعاء لله جل وعلا.

وهذا من أوضح ما يكون دلالة وأعظم ما يكون بياناً لأهمية الدعاء ومكانته وعظيم شأنه، إضافة إلى الآيات الكثيرة التي جاءت في كتاب الله ﷻ، والأحاديث الكثيرة التي جاءت في سُنَّة نبيه ﷺ مبينةً لفضله، وأنّه عنوان الخير وأساس الفلاح، ورأس السعادة، ومفتاح كل خيرٍ في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ

﴿يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال رسول الله ﷺ: «**يد الله ملأى لا تَغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار**»(١). وقال ﷺ ـ فيما روى عن الله تبارك وتعالى ـ: «**يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني؛ فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المِخْيط إذا أُدْخِل البحر**»(٢). وقال ﷺ: «**ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء**»(٣). وقال ﷺ: «**من لم يسأل الله، يغضب عليه**»(٤).

فالله عَزَّ وَجَلَّ يغضب من عبده إذا ترك سؤاله؛ لأنه يُشعِر باستغنائه عن ربه تعالى، وهذا كله من رقة العبودية ووهاء الدين. أمّا إذا حسن دين الإنسان وقويَ إيمانُه وحسنت صلته بربه، لازم دعاء الله وأكثر من سؤاله وطلب مصالحه الدينية والدنيوية والأخروية منه تبارك وتعالى. فكل هذه لا تصلح ولا تستقيم، ولا تتأتى للعبد، إلا بتيسير الله وتوفيقه وإصلاحه. ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»(٥). فالأمور كلها بيده تعالى، ولهذا قال أحد السلف كلمة عجيبة في هذا المقام: «تأملت الأمر فوجدت أن بدايته من الله، ونهايته إلى الله، وكل ما يكون فيه من الله؛ ما يكون من حركة ولا سكون، ولا قيام ولا قعود ولا غير ذلك إلا من الله، فعلمت من ذلك أن مفتاح كل خير دعاء الله».

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٨٣).

(٤) رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٨٤).

(٥) رواه مسلم (٢٧٢٠).

وقال ﷺ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يُستجب لي**»[١]. وهو جلّ وعلا يحب من عبده أن يلحّ عليه وأن يكثر من التضرع بين يديه، بخلاف الناس الذين يتأذون ممن يلح عليهم ويمقتون من يكرر عليهم الطلب، ولهذا قال من قال:

واللَّه يغضبُ إن تركتَ سؤاله وبُنيُّ آدمَ حينَ يُسألُ يَغضبُ

ومن يطلع على سُنَّة النبي الكريم ﷺ الذي هو قدوة الناس وأسوتهم، يتعرف على مكانة الدعاء؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام أعظم الناس دعاءً وأحسنهم رجاءً وأكملهم عبودية، وأعظمهم تذلّلاً وافتقاراً وانكساراً بين يدي الله جل وعلا، فكان يدعو الله ويذكره في كل أحايينه؛ وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أذكار وأدعية موظفة في اليوم والليلة، في الصباح والمساء، وعند النوم، وأدبار الصلوات، وفي الصلوات، وعند الخروج من المنزل، وعند دخوله، وعند تناول الطعام، وعند الفراغ منه، وعند ركوب الدابّة؛ وكان عليه الصلاة والسلام يدعو الله بجوامع الأدعية وأكملها، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك»[٢].

وأدعيته ﷺ التي كان يدعو بها ربّه، أدعية تامّة ومعصومة لا خطأ فيها ولا زلل؛ لأنه كما قال ربه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]؛ وهي مشتملة على أكمل المطالب، وأجلّ المقاصد، وأنبل الأهداف بدون خلل ولا زلل أو خطأ.

أما أدعية غيره عليه الصلاة والسلام، فهي ليست مأمونة ولا مضمونة السلامة، بل قد يكون في بعض أدعية الناس شرك بالله أو بدع غليظة، أو

---

(١) رواه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٢) رواه أبو داود (١٤٨٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨/١).

ألفاظٌ محرمة، أو ركة في العبارة، أو ضعف في الأسلوب؛ وقد تكون سالمة، ولكن ما دعا به الرسول ﷺ أسدُّ وأكمل، ولهذا عدّ أهل العلم من الضلال المبين والانحراف الواضح، أن يكتب بعض الناس أدعية يُنشؤونها أو ينشؤها لهم بعض أشياخهم، فتكتب في أوراق ثم تقرأ موظفة في الصباح والمساء، وأدبار الصلوات وعند النوم، مع هجر لأدعية المعصوم ﷺ؛ فأين هؤلاء من الاتباع والاقتداء، وتعظيم ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، مع دعواهم محبته؟! والله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

قد تجد في أيدي بعض الناس حزب أو ورد كذا، ويكون فيه أشياء ليست ثابتة في السُّنَّة ولا مأثورة عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما تكلّف بكتابتها أحد الأشياخ؛ ثم لكي تنفق على بعض العوام وتروج عندهم، تضمن تلك الأحزاب وتلك الأوراد رؤيا مدّعاة، كأن يقول صاحب الحزب أو صاحب الورد: إنني بعد أن كتبت هذا الورد رأيت النبي ﷺ في المنام، أو رأيت أبا بكر وعمر في المنام أو نحو ذلك، فيقول: قال لي ﷺ: هذا ورد مبارك وورد نافع، انشره في الأمة ينفع الله به! فيقول: لولا هذه الرؤيا لما نشرته بين الناس، ثم العوام يصدقون ذلك، ويكون فيه شرك وبدع وضلالات. وقد قال النبي ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلون**»[1].

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المنامات تكون للبشارة وتكون للنذارة، أما لتقرير الأحكام فلا»؛ فالمنامات لا تؤخذ منها أحكام ولا يبنى عليه دين، كما لا يبنى على التجارب، مثل قول بعض الناس: الدعاء الفلاني جربه فلان، حتى ادعى بعضهم أن دعاء أصحاب القبور مجرب في تحصيل المنافع، ويقولون: قبر فلان ترياق مجرَّب. وهكذا يضلون الناس

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٤١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٥٥١).

ويصرفونهم عن دين الله تبارك وتعالى، وعن ما ينبغي أن يكونوا عليه من الدعاء وذكر الله ﷻ، بأمثال هذه الخزعبلات والترّهات، والمنامات والقصص والحكايات!.

فالواجب على المسلم أن يعي هذا الأمر وأن يكون منه في حيطة، وأن يُقبل على دعوات الرسول الكريم ﷺ.

وقد اشتملت سورة الفاتحة على جملة كبيرة من شروط الدعاء وآدابه، التي إذا تحلى بها المؤمن واتصف بها؛ أجيب دعاؤه، وحقق رجاؤه، وأعطي سؤله:

الأول: الإخلاص لله تبارك وتعالى فيه: وهو أهم شرط، وقد جاء ذكره مقدماً بين يدي الدعاء في سورة الفاتحة بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾. فمن شروط قبول الدعاء أن يكون خالصاً لله، أما إذا صُرف لغير الله أو جُعل مع الله شريك فيه، فإنه يكون باطلاً مردوداً. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ۝١٤﴾ [فاطر]. وقال النبي ﷺ: «**يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً**»[1].

فإذا قال قائل: أحب أن يشفع لي رسول الله ﷺ، فالجواب أن يقال له: كل مسلم يحب أن يشفع له الرسول ﷺ، لكن لا يطلب ذلك منه عليه الصلاة والسلام وإنما يطلبه من الله، ولهذا لما قال أبو

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

هريرة ﷺ للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: **«لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيتُ من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»**[1].

فالأنبياء وسطاء بين الله وبين خلقه في بيان دينه، وليسوا وسطاء بين الله وبين خلقه في الدعاء والعبادة. والناظر في آيات القرآن الكريم يجد آيات كثيرة تبدأ بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ [النازعات]، يأتي الجواب عليها بقوله: ﴿قُلْ﴾ [آل عمران]، فيكون النبي عليه الصلاة والسلام واسطة في البلاغ؛ لكن في مقام الدعاء، ارتفعت الوساطة، فجاء الجواب من الله مباشرة: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة].

وأما الاعتقاد أن الدعاءَ يكون أنفع وأرجى عند قبر فلان، أو بإحضار صورة الشيخ والنظر فيها، ونحو هذا من التعلق بالأشياء، فإنَّ هذا كله من الضلال المبين.

الثاني: المتابعة للرسول الكريم ﷺ، وهذا أيضاً منصوص عليه في سورة الفاتحة في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: الطريق القويم والمسلك الرشيد، الذي كان عليه نبينا ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وينبغي للخلق أن يدعو بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسُّنَّة؛ فإن ذلك لا ريب في فضله وحسنه، وأن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

ومن أعجب العجب أن بعض الأشياخ كتبوا في الذكر أذكاراً

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

مخترعة، سمَّوا بعضها الصراط القويم. سبحان الله! الصراط القويم هو الذي كان عليه الرسول ﷺ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ولهذا، حقيق بأمثال هذه الكتب أن تسمى السبيل المعوجّ؛ لأن الصراط القويم هو الذي كان عليه رسول الله ﷺ، وكل طريق إلى الجنة مسدود، إلا طريق الرسول الكريم ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»(١).

الثالث: الإلحاح على الله عز وجل، وأن لا ييأس الإنسان وينقطع ويقول: دعوت ودعوت ولم يستجب لي، بل يكون مُلِحّاً دائم الالتجاء إلى مولاه تبارك وتعالى. وسورة الفاتحة دلّت على أهمية الإلحاح في الدعاء من جهة أنها السبع المثاني، فهي تقرأ وجوباً في كل ركعة من الصلاة فرضاً أو نفلاً، وهذا يؤكد أن الثبات على دين الله من أعظم الوظائف المطلوبة في كل يوم وليلة؛ ولهذا تكرر سؤال الله الهداية: في الصلاة، وفي دعاء القنوت، وفي الأدعية العامة. فالمسلم لا يزال يحتاج أن يلح على الله تبارك وتعالى، وأن يكرر الدعاء والسؤال والطلب منه جلَّ وعلا؛ ممتثلاً قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وراجياً منه جل وعلا أن يعطيه ما سأل، أو يصرف عنه من السوء مثله، أو يدّخره له ثواباً عنده يوم القيامة.

الرابع: الجزم بالدعاء والعزم في الطلب والمسألة:

قال رسول الله ﷺ: «**لا يقولنَّ أحدكم: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت، اللَّهُمَّ ارحمني إن شئت؛ ليعزم المسألةَ، فإنه لا مستَكْرِهَ له**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

فالمطلوب في الدعاء: العزم وأن لا يأتي الدعاء رخواً، يظهر منه ضعف الإقبال أو ضعف اليقين، في سؤال الله تبارك وتعالى وطلبه.

ولهذا أيضاً، من الدلالات التي تضمنتها سورة الفاتحة: العزم في طلب الهداية، ورجاء ذلك من الله، مع البعد عن الارتخاء والفتور في السؤال والطلب.

الخامس: حضور القلب وعدم الغفلة عند الدعاء، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ**»[1]. فالمطلوب من الداعي أن يكون حاضر القلب، راجياً مقبلاً على مولاه، موقناً بأن الله يجيب دعاءه. وقد اشتملت سورة الفاتحة على ذلك، من جهة التهيؤ الذي يأتي للداعي في تلك المقدمة العظيمة بين يدي السؤال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. فلم يبدأ بالدعاء مباشرة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وإنما جاء ذكر الله وتعظيمه وتمجيده، والثناء عليه تبارك وتعالى بين يدي الدعاء؛ وهذا فيه تهيئة للقلب، ليكون مقبلاً على الله تبارك وتعالى، عندما يدعوه ﷻ.

السادس: توسل الداعي إلى الله تبارك وتعالى بالوسائل المشروعة. وهذا باب مهم وخطير في نفس الوقت، وكثير من الناس يزِلُّ فيه بسبب سوء الفهم وعدم معرفة حقيقة التوسل المشروع، ولهذا قال العلماء: «التوسل منه توسل مشروع، ومنه توسل ممنوع».

والتوسل المشروع: بثلاثة أمور، وكلها مذكورة في سورة الفاتحة:

ـ **الأول**: التوسل إلى الله تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته ـ وهو

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٣٤).

أعظم ما يكون. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [الإسراء: ١١٠]. فهذان الاسمان في سورة الفاتحة وسيلة بين يدي الدعاء، ولهذا جاء ذكر التوسل إلى الله تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته في سورة الفاتحة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾. فهذه وسيلة عظيمة جاءت في القرآن، وفي سُنَّة النبي ﷺ، وهي أيضاً في سورة الفاتحة.

ـ **الثاني**: التوسل إلى الله بعملك الصالح: بعبادتك له وإخلاصك، واعتمادك عليه ورجائك منه، وعبوديتك له وتفويضك أمرك إليه، وتذللك بين يديه؛ وهذا أيضاً وسيلة نافعة: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فجاء ذكر الإيمان وسيلة إلى الله جل وعلا.

إذن: التوسل بالإيمان وبالعمل الصالح، وبالتوحيد وبمحبة الرسول ﷺ وباتباعه، هذه كلها أعمال صالحة يتوسل إلى الله تبارك وتعالى بها؛ وهذا مذكور في سورة الفاتحة، في قولك قبل الدعاء: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ أي: أنت يا الله وحدك أخصك بالعبادة، وأخصك بالاستعانة: اهدني الصراط المستقيم.

فأنت الآن توسلت في سورة الفاتحة بنوعين من الوسائل: توسلت إلى الله بأسمائه وصفاته، وتوسلت إلى الله بعبادتك له ﷻ.

ـ **الثالث**: التوسل إلى الله بدعاء الصالحين الأحياء الحاضرين، بأن تقول لرجلٍ أمامك تحسبه من أهل الخير والصلاح: ادع الله لنا أو ادع لي وللمسلمين أو نحو ذلك، فهذا أيضاً لا بأس به؛ أما التوسل إلى الله بالأحياء الغائبين مثل ما يفعل أهل الضلال، كأن يكون في بلد وشيخه في بلد ثم يطلب منه، أو بالأموات الذين انقطع عنهم العمل وماتوا،

فهذا لا يجوز؛ ولا يوجد دليل في كتاب الله، ولا في سُنَّة نبيه ﷺ، يدل على مشروعية مثل هذا العمل.

إذاً: يتوسل إلى الله: بأسمائه وصفاته، وبإيمان العبد به وعبادته وطاعته له، وبدعاء الصالحين الأحياء؛ ولعل هذا النوع الثالث، قد يستفاد أيضاً من قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ لأنك هنا تدعو لك ولغيرك. ودعاء المسلم لإخوانه المسلمين في ظهر الغيب مستجاب، وإذا دعا المؤمن لأخيه، وكّل الله ملكاً يقول: ولك مثل ذلك، عن أبي الدرداء رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملَكٌ موكَّل؛ كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكَّل به: آمين، ولك بمِثْل**»(١). فالدُّعاءُ للمؤمنين بظهر الغيب ثوابه عظيمٌ لا يحصر.

وقال رسول الله ﷺ: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**»(٢). فإذا قلت في دعائك: اللَّهُمَّ اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، نلت ملايين الحسنات بحمد الله؛ لأن لك بكل مسلم حسنة حياً كان أو ميتاً، من زمن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فهل يليق أن تقتصر في دعائك لنفسك وتنسى إخوانك؟!

قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللَّهُمَّ ارحمني ومحمداً، ولا ترحم

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٣).

(٢) رواه الطبراني، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦).

معنا أحداً. فلما سلَّم النبي ﷺ، قال للأعرابي: «**لقد حَجَّرْتَ واسعاً**» يريد رحمة الله[1].

فالمسلم يسأل الله جلَّ وعلا رحمته ومغفرته، له ولإخوانه المسلمين؛ ويشركهم في دعائه، مثل ما يحب أن يشركوه أيضاً في دعائهم.

فهذه ثلاث وسائل مشروعة، ثم ما سوى ذلك ممنوع، وقد يكون شركاً أو بدعة.

أما الشرك من ذلك فدعاء غير الله، مثل أن يقول: مدد يا فلان أو أغثني يا فلان، أو أسألك كذا يا فلان؛ فهذا كله شرك بالله ولو سماه صاحبه توسلاً؛ لأن بعضهم يقول: هذه وسيلة! وكيف يكون دعاء غير الله وسيلة؟ نعم هو وسيلة للباطل: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر].

فتسمية الشيء بغير اسمه لا تغير حقيقته! كتسمية الشرك توسلاً، والربا فائدة، والخمر مشروباً روحياً، والرشوة إكرامية.

هنا كثير من المسلمين يسأل: هل يجوز لنا أن نقول في دعائنا: اللَّهُمَّ إنا نسألك بجاه محمد ﷺ أو بجاه أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي، أو نحو ذلك؟

والجواب على هذا السؤال: أولاً ينبغي أن يعلم ـ وهذا لا يشك فيه مسلم يعرف الرسول عليه الصلاة والسلام ـ أنّ جاه الرسول ﷺ عند الله عظيم، والله جل وعلا قال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقال عن موسى عليه السلام:

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٠).

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾ [الأحزاب]؛ والنبي ﷺ أفضل من عيسى وموسى ومن كل الأنبياء، فجاهه عند الله أعظم جاه، لا يشك في هذا أحد. وهذا أمر متقرر معروف؛ لكن السؤال: هل يجوز لنا أن نتوسل إلى الله بجاه النبي ﷺ؟

للجواب على هذا السؤال نقول: ننظر إن كانت السُّنَّة أرشدت إلى هذا ودلت عليه فُعل، وإذا لم ترشد إليه ولم تدل عليه لا يُفعل؛ لأن الأمر مرتبط بالاتباع والاقتداء بسُنَّة النبي ﷺ. وقد نظر أهل العلم في أحاديث النبي ﷺ، ووجدوا أنه لم يرد حديث صحيح ثابت عن النبي ﷺ، فيه مشروعية التوسل بالجاه. نعم جاءت أحاديث لا تصح، مثل الحديث الذي رُوِّجَ بين العوام: «توسلوا بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم»، وهذا حديث لا أصل له عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، كما بيَّن أهل العلم أو أحاديث صحيحة اِسْتُدل بها على مشروعية التوسل بالجاه وليس فيها دلالةٌ واضحةٌ على ذلك.

السابع: الدعاء بجوامع الكلم: وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**بُعِثْتُ بجوامعِ الكَلِمِ**»[1]، وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك»[2]، فكان يختار الدعاء الجامع، وهكذا كل أدعيته جامعة صلوات الله وسلامه عليه.

وانظر هذا الدعاء الجامع في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها، فقد جمع كلَّ خير في الدنيا والآخرة.

ولهذا على الإنسان أن تكون دعواته جامعة كما أرشدنا عليه الصلاة والسلام، ومن يتقيّد بدعواته عليه الصلاة والسلام فإنه ينال جوامع الدعاء وفواتح الخير، وتمام الأمر في الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

(٢) رواه أبو داود (١٤٨٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/٤٠٨).

وليحذر الإنسان من الاعتداء في الدعاء، بالتفاصيل التي قد يفعلها بعض الناس، بغير هدى ولا دليل.

عن ابن سعد أنه قال: سمعني أبي وأنا أقول: اللَّهُمَّ إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا، فقال: يا بنَيَّ! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيكونُ قومٌ يَعتَدونَ في الدعاء**»؛ فإياك أن تكون منهم، إنك إن أُعطيتَ الجنة، أُعطيتَها وما فيها من الخير؛ وإن أُعِذْتَ من النار، أُعِذْتَ منها وما فيها من الشر[١].

الثامن: أن يجمع الداعي في دعائه بين الخوف والرجاء، بحيث يكون في دعائه راجياً خائفاً، ولا يغلِّبُ رجاءً على خوف ولا خوفاً على رجاء؛ لأنه إن غلَّب الرجاء على الخوف قد يأمن من مكر الله، وإن غلَّبَ الخوف على الرجاء قد ييأس من روح الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

وهذا الأمر مذكور في سورة الفاتحة؛ فأنت إذا قلت: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، متدبّراً وعاقلاً عن الله خطابه، حضر في قلبك الخوف والرجاء: رجاء الرحمة، وخوف العذاب.

التاسع: أن يكون الداعي على طهارة، وهذا ليس بشرط لكنه أكمل، وإذا كان على طهارة وفي صلاة، فهذا الأكمل والأدعى للإجابة؛ وهذا أيضاً واردٌ في سورة الفاتحة، لا سيما إذا قرأها المسلم وهو في صلاته، يناجي ربه تبارك وتعالى.

---

(١) رواه أبو داود (١٤٨٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٤٠٧).

العاشر: أن يسبق الدعاءَ توبة وإنابة واستغفار، وهذا يأتي أيضاً في بعض أدعية الاستفتاح قبل الفاتحة: «**اللَّهُمَّ باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللَّهُمَّ نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللَّهُمَّ اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد**»[1].

فهذه أمور تتعلق بالدعاء، دلت عليها هذه السورة العظيمة، وعلى كل مسلم أن يعرف قيمة الدعاء، وعظيم مكانته عند الله ﷻ، وشدة حاجة العبد إليه في كل أحواله، وأن الدعاء مفتاح كل خير في الدنيا والآخرة؛ وعليه كذلك أن يتعرف على آداب الدعاء وشروطه، وأوقات وأماكن إجابة الدعاء المأثورة في السُّنَّة: مثل صعيد عرفة، وفوق الصفا وفوق المروة، وبعد رمي الجمار في أيام التشريق بعد الأولى والثانية. وهناك أيضاً أوقات الدعاء فيها أرجى مثل ليلة القدر، والساعة التي في يوم الجمعة، وثلث الليل الآخر، وفي السجود؛ فيتحرى الإنسان أحوال الدعاء والأوقات والأمكنة التي يستجاب فيها، وكل ذلك يكون في حدود المشروع في سُنَّة النبي ﷺ.

وقد جمع بعض أهل العلم آداب الدعاء المستجاب وشروطه في أبيات لطيفة فقال:

قالوا شروط الدعاء المستجاب لنا ... عشر بها بشّر الداعي بإفلاح
طهارة وصلاة معهما ندم ... وقتُ خشوع، وحسن الظن يا صاح
وحلّ قوت ولا يدعى بمعصية ... وباسم يناسب مقرون بإلحاح

قوله: (بها بشر الداعي بإفلاح)؛ أي: بشره بأنه إذا دعا ملتزماً بها، بأنه مفلح ونائل ما سأل.

طهارة وصلاة معهما ندم؛ أي: أن يكون على طهارة وأن يكون في

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

صلاة، وهذا ليس من الشروط ولكن من الآداب ومن كوامل الدعاء.

وقتٌ، خشوعٌ، وحسنُ الظن بالله؛ يعني: أن يكون في وقت فاضل، مع خشوع في دعائه وخشية وإنابة إلى الله، وأن يكون أيضاً حسن الظن بالله، وقد قال الله ﷻ كما في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**»[١].

وكذلك من الشروط ما أشار إليه بقوله: (وحلّ قوت)؛ أي: أن يكون مطعمه طيباً حلالاً، وهذا جاء في حديث أبي هريرة: قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ثم ذكر عليه الصلاة والسلام: الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ! ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك**»[٢]. ولهذا من الشروط المهمة أن يبتعد المرء عن الحرام، كما قال بعض السلف: «لا تستبطئ الإجابة، وقد سددت طرقها بالمحرمات»؛ فالحرام مانع من موانع الإجابة، ولهذا استبعد النبي ﷺ ذلك بقوله: «**فأنّى يُستجاب لذلك؟!**».

ولا يدعو الإنسان بمعصية: كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل**»[٣]. فمن شروط إجابة الدعاء: أن لا يدعو العبد بمعصية، أو بإثم، أو بقطيعة رحم.

وباسم يناسب؛ يعني: يختار من أسماء الله تبارك وتعالى الاسم المناسب لمطلوبه، وإذا لم يأت بالاسم المناسب يحدث في الكلام تنافر، ولهذا يأتي في النصوص الدعاء مع الاسم المناسب له: ﴿رَبَّنَا

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٩١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٣١٦).

(٢) رواه مسلم (١٠١٥).

(٣) رواه مسلم (٩٢)، (٢٧٣٥).

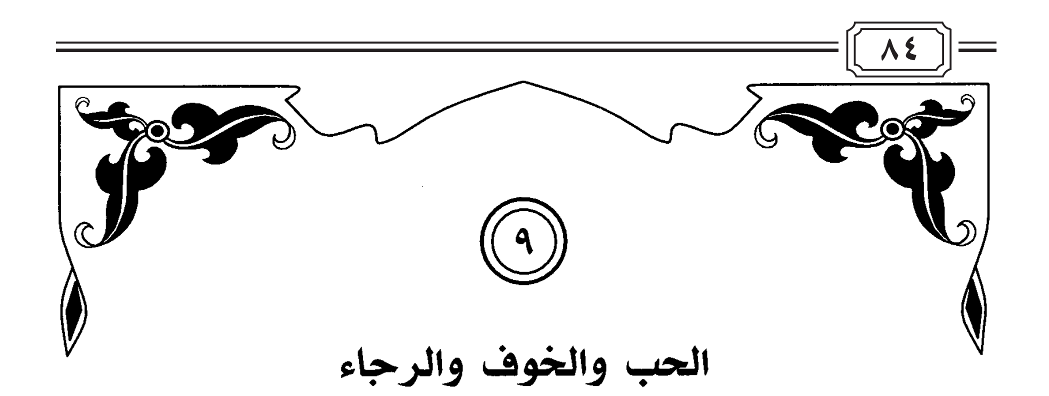
ﭐفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف]؛ تقول: رب اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم وهكذا، أما أن تأتي باسم لا يناسب فعندئذٍ يحدث تنافر، مثل أن يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ ارحمني واغفر لي يا شديد العقاب، فهذا غير مناسب؛ وإنما المناسب ههنا: يا غفور يا رحيم، يا من رحمته وسعت كل شيء، فيذكر من الأسماء الحسنى ما يتناسب مع المطلوب». ولهذا ذكر العلماء قاعدة: «أن كل آية في القرآن الكريم ختمت باسم أو صفة لله، ففي المعاني المذكورة فيها ما يناسب الاسم أو الصفة التي ختمت به».

ولهذا يذكرون أن أعرابياً سمع مرة رجلاً يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة]، أخطأ القارئ وقال: والله غفور رحيم. قال الرجل: ليس هذا كلام الله، فغضب القارئ وقال: تنكر كلام الله؟ قال: لا أنكر ولكن ليس هذا كلام الله ـ وجد آخر الكلام لا يتناسب مع القطع والنكال والعذاب فتنبه القارئ ورجع فقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾. قال: «نعم! عزّ فعدل وحكم فقطع»، يريد أن الكلام متناسب. ولهذا ذكر ابن القيم رحمة الله عليه ـ وقد أورد هذه القصة في كتابه «جلاء الأفهام» ـ إنَّ دعاء الإنسان باسم لا يناسب يحصل به تنافر في الكلام.

قوله: (مقرون بإلحاح)؛ يعني: تلح على الله تبارك وتعالى وتكثر من السؤال، وتديم الطلب وتديم قرع الباب ويوشك أن يفتح لك.

أسأل الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يوفقنا وإياكم بتوفيقه، وأن يهدينا سواء السبيل.





الحب والخوف والرجاء

ومن هدايات هذه السورة: أنّ فيها إشارة إلى أركان التعبّد القلبية؛ وهي: الحب، والرجاء، والخوف.

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء]، فلا بد في كلِّ عبادة من أن تكون قائمة على هذه الأركان الثلاثة القلبية: الحب والرجاء والخوف، فالعبدُ يصلي لأنه يحب الله ويرجو ثوابه ويخاف عقابه.

قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ ـ معرِّفاً التقوى ـ: «تقوى الله العمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء ثواب الله، وترك معصية الله، على نور من الله، خيفة من عقاب الله».

ولا يجوز أن يعبد الله بالحبّ بدون خوف ولا بالرجاء، ولا أن يُعبد بالخوف وحده بدون حبّ ولا رجاء، ولا بالرجاء وحده بدون خوف ولا حب، كلّ هذا ضلال. كما قال أحد السلف: من عبد الله بالحبّ وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري (يعني: على طريقة الخوارج)، ومن عبد الله بالحبّ والرجاء والخوف فهو مؤمن موحّد. فأنت تعبد الله بالحب والرجاء والخوف، تعبده حبّاً له، ورجاء لثوابه، وخوفاً من عذابه. وقد اجتمعت هذه الأركان الثلاثة في سورة الفاتحة:

١ ـ فالحب في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ والحمد هو الثناء على الله مع حبّه، فالثناء مع الحب يسمّى حمداً.

وأل في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاستغراق؛ أي: جميع المحامد لله: حمد على نعمائه، وحمد على أسمائه وصفاته ﷻ، ففي قولك: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ حب لله، وهذا الرّكن الأول.

٢ ـ والرجاء في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إذا قرأ العبد هذين الاسمين العظيمين: وفهم ما دلا عليه من ثبوت الرحمة لله جلّ وعلا، وقع في قلبه ـ إن كان متأمّلاً متدبّراً ـ رجاء رحمة الله. كما قال تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ [الإسراء: ٥٧].

٣ ـ والخوف في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إذا استحضر القارئ الحساب بين يدي الله، فيقع في قلبه الخوف، مع رجائه عفو الله: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١﴾ [النجم]. وهول الموقف يوم القيامة عظيم: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار].

بعد هذا أتى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فكأنك تقول: إياك نعبد يا الله: بالحبّ الذي دلّ عليه ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وبالرجاء الذي دل عليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وبالخوف الذي دل عليه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

فلما أُرْسِيَتْ قاعدة العبادة، جاءت العبادة.

فكيف يسوغ لأحد بعد هذا أن يقول: أنا أعبد الله فقط حباً فيه، لا أريد ثواباً، ولا أخاف عقاباً، ولا ريب أن هذا من الضلال؟ فإبراهيم الخليل إمام الحنفاء يقول: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾ [الشعراء]. وقال النبي ﷺ لرجل: «**كيف تقول في الصلاة؟**» قال: أتشهّد وأقول: اللَّهُمَّ إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك

ولا دندنة معاذ! فقال النبي ﷺ: «**حولها نُدَنْدِنُ**»[(١)].

وكان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»[(٢)]، بل بعضهم يزداد في ضلاله ويقول: الذي يعبد الله من أجل ثواب أو خوف عقاب هذه عبادة التجار، وهذا من الضلال المبين والعياذ بالله، فالأنبياء كلّهم رغبوا في الجنة وحذّروا من النار، وسألوا الله الجنة، وتعوّذوا به من النار. فإذا أتى إنسان وقال: أنا لا أريد جنة ولا أخاف من نار، وإنما أريد أن أعبد الله حباً فيه فقط؛ فهذا ضالّ منحرف عن صراط الله المستقيم، وعن دينه القويم، وعن متابعة سَنن الأنبياء والمرسلين.

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ علّمها هذا الدعاء: «**اللَّهُمَّ إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله، عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم؛ اللَّهُمَّ إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيُّك، وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيُّك؛ اللَّهُمَّ إني أسألك الجنة، وما قرَّب إليها من قول أو عمل؛ وأعوذ بك من النار، وما قرَّب إليها من قول أو عمل؛ وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيتَهُ لي خيراً**»[(٣)].

ويأتي في أدعية النبي ﷺ كثيراً: سؤال الله الجنة والتعوذ به من النار، والتعوذ بالله من عذاب القبر، والتعوذ بالله من عقاب الله، ويأتي هؤلاء العاطلون ويقولون: نحن لا نريد جنة ولا نخاف من نار، وإنما فقط نحب الله. هذا ضلال وانحراف، فالواجب عليك أن تعبد الله حباً

---

(١) رواه أبو داود (٧٩٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٢٥).

(٢) رواه البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٤٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣١١٦).

له تبارك وتعالى ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: «إن للعبادة أيّاً كانت أركاناً ثلاثة، لا بد أن تكون في القلب: حب الله ورجاء ثوابه وخوف عقابه».

ولهذا على الإنسان أن يتقي الله ويعرف دينه والصراط المستقيم والجادة السوية، ويُقْبِل على دين الله جل وعلا إقبالاً صحيحاً؛ فيحب الله تبارك وتعالى، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه.

أسأل الله الكريم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يسلك بنا جميعاً صراطه المستقيم، اللَّهُمَّ اهدنا الصراط المستقيم: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

اللَّهُمَّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللَّهُمَّ اغفر لنا ذنبنا كله: دقّه وجلّه أوله وآخره سره وعلنه، اللَّهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، اللَّهُمَّ إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل برّ والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

